

الباب الثاني

الاتجاهان الوطني والقومي في الشعر الفلسطيني المعاصر

من ١٩١٨ إلى ١٩٦٨م

الفصل الأول: الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر.

الفصل الثاني: الاتجاه الوطني القومي في الشعر الفلسطيني المعاصر.

الفصل الأول

الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر

من ١٩١٨ إلى ١٩٦٨ م

مقدمة حول الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر

من ١٩١٨ إلى ١٩٦٨ م

تعدد الاتجاهات الأدبية في كل لغة، ويعتبر أنيس المقدسي من أشهر الذين درسوا الاتجاهات الأدبية في العالم العربي، وقد قَسَمها إلى أربعة أبواب هي:

١- الاتجاه القومي .

٢- الاتجاه الاجتماعي .

٣- الاتجاه الفكري .

٤- الاتجاه الفني^(١) .

ويرى صالح أبو إصبع أن الشعر العربي في فلسطين المحتلة قد سار - من حيث مضمونه - في خمسة اتجاهات رئيسية هي:

١- اتجاه وطني

(١) المقدسي - أنيس: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ص ١٢. دار العلم للملايين، بيروت، ط ٧ (١٩٨٢م).

٢- اتجاه قومي .

٣- اتجاه إنساني .

٤- اتجاه ذاتي .

٥- اتجاه أممي (١) .

وبعد دراسة مستفيضة للشعر الفلسطيني في نصف القرن الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، والتعرّف على الجوانب التي طرقتها، أرى أن الجوانب الوطنية والقومية والدينية هي التي كانت طاغية فيه، بسبب وعد بلفور والسعي إلى تنفيذه، سواء في فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية، أو في مساعدة اليهود على تنظيم جيش قوتي والإعداد لإنشاء دولة صهيونية في فلسطين، أو في إضعاف العرب وتفريق صفوفهم، ولا سيّما عرب فلسطين، وفي اضطهادهم ومنعهم من الوقوف في وجه القوة اليهودية التي كانت تتزايد يوماً بعد يوم، أو في الاعتداء على المقدسات الإسلامية والمسيحية ودفاع العرب عنها... وعندما وقعت الكارثة الأولى عام ١٩٤٨م أُخرج القسم الأكبر من عرب فلسطين من ديارهم فلجأوا إلى البلدان العربية المجاورة في شرقي الأردن وسورية ولبنان والعراق ومصر، وتعددت القضية الفلسطينية التي أصبحت في كثير في وجوها قضية قومية عربية، وقضية إنسانية عالمية، وكان طبيعياً أن يدور الشعر الفلسطيني في معظمه حول هذه القضية، لذلك كانت اتجاهاته الوطنية ذات طابع قومي وطابع ديني إسلامي ومسيحي، وطابع اجتماعي، لما رافق النضال الوطني الفلسطيني من مشكلات اجتماعية وإنسانية كبرى، ولما كانت الدول الغربية، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأميركية وبريطانية وفرنسة داعمة لليهود وملتزمة إقامة دولة

(١) أبو إصبع - صالح: الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، ص ٢٨. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١ (١٩٧٩م).

لهم، والدفاع عنها وترسيخها في أرض فلسطين، وتقويتها بكل الوسائل التي تجعلها قادرة على الوقوف في وجه العرب جميعاً، وإمدادها بالأسلحة المتطورة وبالمال والخبرات والعتاد، وفي كل ما تحتاج إليه، وكانت الدول الاشتراكية - وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي وبعض دول أوروبا الشرقية - مناوئة للغرب، فإن الفكر الاشتراكي الذي يدين به المعسكر الشرقي قد قوي في البلاد العربية، وَوَجَدَ له مسارب كثيرة بعد النكبة الأولى، لا سيّما وأن المعسكر الشرقي قد أمدّ الثورة الفلسطينية وأمدّ العرب أيضاً بمساعدات ذات قيمة، ووقف إلى جانب الحق العربي، وقفات كثيرة، من غير أن يذهب بعيداً إلى حدّ إلغاء اغتصاب اليهود لأرض فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨.

لذلك كثر الشعر الوطني والقومي ثم الديني، وأصبحنا نجد مثلاً جوانب من الشعر الوطني والقومي الفلسطيني ينطبع بطابع اشتراكي، يدعمه في ذلك وجود الحزب الشيوعي في الدولة اليهودية، والنواب الشيوعيون في «الكنيست الإسرائيلي»، ومن هنا اشتهر الجانب الاشتراكي بمزايا خاصة.

كذلك فإن الجانب الديني قد برز في حياة الشعب الفلسطيني، وبالتالي برز في شعر هذا القطر خلال فترة البحث، فكثيراً ما نُظِرَ إلى محاربة المخططات الصهيونية كواجب ديني من خلال الجهاد في سبيل الله والوطن، فضلاً عن اعتباره واجباً وطنياً.

وطالما وقف المواطن الفلسطيني في ساحات الوعى مردداً القول: «الله أكبر». و«يا محمد»، و«بسم الله»، و«توكلت على الله»، معبراً في ذلك عن إيمان راسخ في حقه وواجب الجهاد والتضحية، وكم من مرة شكّل القادة الأحرار - ومنهم رجال الدين أمثال البطل عز الدين القسام - كتائب للقتال والجهاد في سبيل الوطن، وأعد القائد البطل عبد القادر الحسيني الجيش الفلسطيني، وأسماه «جيش الجهاد المقدّس»، وها نحن نرى اليوم تنظيمًا

فدائياً يقاتل العدو وينشر عناصره داخل الأرض المحتلة وخارجها تحت اسم «الجهاد الإسلامي» وكم من مرة صرع أبطال عرب زعماء يهود، مثل الكاهن اليهودي «مثير كاهانا»، وأعلنوا أن دوافع جهادهم وأعمالهم دينية، وأنهم ينتقمون ضد الاعتداء على المسجد الأقصى والمصلين فيه، وطالما قاتل عرب فلسطين دفاعاً عن المسجد الأقصى والكتب الدينية ودفاعاً عن كنيسة المهدي ومحتوياتها، وكلها أسباب دينية، ثم كم مرة ومرة بحث زعماء عرب فضلاً عن زعماء المسلمين في المؤتمر الإسلامي قضية فلسطين ومقدساتها واتخذوا قرارات عديدة بغية الدفاع عنها، وقس على ذلك ما جرى في مؤتمرات المسيحيين الفلسطينيين بشأن الدفاع عن مقدساتهم وحمايتها.

وخلاصة القول إن الاتجاه الديني يظهر في حياة الجماهير الفلسطينية، وفي الشعر الفلسطيني أيضاً.

والواقع أن الشعر الوطني يشبه نهراً كبيراً تصبّ في مجراه روافد مختلفة - كمّاً ونوعاً - منها ما هو قومي، ومنها ما هو ديني، ومنها ما هو اجتماعي إنساني، ومنها ما هو فكري يبرز من خلال الجانب الاشتراكي، وتشكّل هذه الروافد إغناءً مهماً للشعر الوطني الفلسطيني والشعر العربي عامة.

ولمّا كان الشعر الوطني بارزاً في الاتجاهين الوطني والقومي، وكانت سائر الاتجاهات أشبه بروافد تصبّ في مجرى الشعر الوطني، فقد أضحت الاتجاهات الوطنية كافة مثل مظلة تظلّل هذه الاتجاهات المختلفة، وعلى هذا اعتمدنا في اختصار تسميتها جميعاً بالاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، على سبيل التعميم والقصر، لا على سبيل الدقة والحصر، وهو عنوان يعبر عن مضمون هذا الكتاب، ويُغني عن عناوين أخرى طويلة.

وما دمنّا بصدد التعرّف على الاتجاهات الوطنية في هذا الشعر.. فإنه

بات لزاماً علينا بحث الروافد أو الجوانب المشار إليها آنفاً، كل على حدة، كي نستطيع بالتالي تحديد صورة شاملة لهذا الشعر من خلال هذه الجوانب كافة.

وحرصاً مني على عدم الوقوع في خطأٍ من جزاء حشد هذه الاتجاهات في باب واحد، قد يتضخم كثيراً، فقد جعلت تقسيمها في بابين اثنين، بحيث وقفت الباب الثاني على الاتجاهين الرئيسيين: الوطني والقومي، وبحثت الاتجاهات - أو الروافد - الأخرى في الباب الثالث.

وهكذا فالترابط قائم بين هذه الاتجاهات، وعلى سبيل المثال فإن الجهاد - الذي يُعدُّ واجباً وطنياً - من أجل تحرير فلسطين هو فرض عين في عرف الإسلام والمسلمين، وما ينتج عنه من تضحيات ومعاناة وهدم وخراب وتشريد وأحداث ذات صلة بالأحوال الاجتماعية للجماهير...

ويبقى الاتجاه الوطني هو الأقوى في الشعر الفلسطيني، بينما ترتبط به سائر الاتجاهات، وتصب في مجراه، فتؤثر فيه ويؤثر فيها، شكلاً ومضموناً. لذلك كله كان من الطبيعي أن أتناول في بحثي الدائر حول الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني الاتجاهات الوطنية القومية والدينية والاجتماعية والاشتراكية في هذا الشعر، وهي ترتبط بالجانب الوطني وتفيده كثيراً، حتى يمكن القول إنها جميعاً جوانب وطنية...

ومعلوم أن الشعر ليس مضموناً فكرياً وحسب، وإنما هو عمل فني يتجاوز هذا المضمون إلى صياغة شعرية فنية، وهذه الصياغة ليست مستقلة عن المضمون الفكري، بل هي ملتحمة معه ومتشابكة، ومرتبطة به أشد الارتباط.

واستكمالاً لجوانب البحث لم يكن بدّ من تقويم الشعر الفلسطيني

تقريباً فنياً، ولهذا اقتضت الدراسة أن يتضمن البحث ما يلي

١ - الاتجاهين الوطني والقومي في الشعر الفلسطيني المعاصر من

١٩١٨ إلى ١٩٦٨م.

٢ - الاتجاهات الوطنية الدينية والاجتماعية والاشتراكية ثم الجانِب

الفني في هذا الشعر...

٣ - أغراض الشعر الفلسطيني ومظاهر التجديد فيه وصوابه ومكانته.

وألفت نظر القارئ الكريم لى أنني سوف أعمد إلى بحث هذه الاتجاهات في فصول البابين الثاني والثالث بالتتالي، وسأضمنها إلماحات إلى اتجاهات أخرى صغيرة، وأقدم بعض الشواهد عليها، مؤكداً أن قلة الشعر فيها لا تستدعي إيلاءها فصولاً منفصلة للبحث...

ومما يجدر ذكره أن هذا البحث ليس موسوعة تتسع لكل شاعر وكل ما نظم في هذه الاتجاهات، والموسوعة وحدها هي التي تتسع لمثل هذه المهمة، وبناءً عليه فإنني سوف أختار أمثلة في المجالات والتشؤون التي تتعلق ببحثي، والتي لا بد أن تكون أفضل شعر وجدته، وغالباً ما تكون أيضاً لأبرز الشعراء، دون مبالاة أو تمييز، ومن ثم يُجد في شعره فالذنب ذنبه... ومن جهتي، فإنني أتعلق بالشعر الجيد، المعبر بقوة عن كل موضوع يرتبط بالبحث، أكثر من تعلق الناس بالجواهر...

ومن جهة ثانية فإنني لم أستطع الاطلاع على كل ما نُشر من شعر في

أي من هذه الاتجاهات، لأسباب عديدة لا تخفى على المتبصرين.

بعد هذا فإنني عازم على البدء في بحث هذه الاتجاهات، لا سيما

أوسعها وأبرزها في هذا الشعر، ألا وهو الاتجاه الوطني، خاصة وأن شعراء فلسطين يقدمون وطنهم على سائر أقطار الكون، ومختلف الموضوعات، وليس لهم غنى عنها جميعاً.

الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر من ١٩١٨ إلى ١٩٦٨

تحديد وتوضيح:

من المعلوم أن الأدب العربي القديم - شعره ونثره - هو التراث المشترك الذي يلتقي عنده العرب ويفخرون به، وأن الشعر شيء تجيش به نفوسنا فينتقل على ألسنتنا كلاماً مقفىً موزوناً أو مرسلأً، فضلاً عن الشعر الشعبي، وأنه على أية حال يرتبط بالشعور، ويعبر عن العواطف والإحساس، والمعنى فيه سابق على المبنى، وهو وثيق الصلة بالوطن والمواطن والأحداث والعقائد والعواطف والنزعات الفردية: والطبيعة والحضارة، ويستدعي دراسة سماته الأسلوبية العامة.

ويشير مصطفى الفار إلى أن الأدب العربي الحديث قد نهض في نهاية القرن التاسع عشر، مع أحداث الأمة العربية، وتطور معها، وتنقل بين الكفاح ضد الاستعمار، والدعوة إلى التحرر، فكان أن اتجه كثير من الكتاب والشعراء في أدبهم وشعرهم نحو غايات وطنية وقومية واجتماعية ودينية وأخلاقية وغيرها، وراحوا يدعون إلى المشاركة الوجدانية في أحداث الأمة وأمانيتها وأهدافها^(١) في المقام الأول، وهذا ما سنبحثه في الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، ولهذا وجب تحديد هذه الاتجاهات وتوضيحها، بغية التعرف عليها من جهة، وتنظيم دراسة الشعر تبعاً لهذه المناحي من جهة ثانية.

(١) الشاعر أبو سلمى أدياً وإنساناً، ص ٤١.

ما هو الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر؟

إن هذا الفصل يُظهر حب الوطن والمواطن، ويبرز الاهتمام بالأحداث المختلفة والمشاعر الوطنية التي تنم عن الحرية والإباء والعزّة، وذود المرء عن أرضه وعرضه وأهله، وكل ما يرتبط بحقوقه وكرامته، وأفراحه وآماله، تلك الأمور التي كانت وما تزال موضع اهتمام الإنسان العربي عامة، والشاعر خاصة، منذ فجر التاريخ، وتبرز بقوة في الشعر الفلسطيني المعاصر.

ولكن بحث الاتجاه الوطني يستدعي تحديد المفهوم اللغوي لكلمتي «اتجاه» و«وطن»، ومن ثم تحديد مفهومهما العام ليسهل على القارئ الكريم إدراك فحوى كل منهما بشكل واضح وصريح.

أ - مفهوم الاتجاه الوطني

يتبيّن لنا من مراجعة معاجم اللغة أنّ كلمة اتجاه مأخوذة من اتجه، و«اتجهت إليك أي توجهت، لأن أصل التاء فيها واو. وقد ابن بزّي: قال أبو زيد: تجه الرجل يتجه تجهاً. والأصمعي يرويه تجهنا والذي أرادته اتجهنا، فحذف ألف الوصل وإحدى التاءين»^(١). وجاء في تفسير أوضح أن «اتجه إليه أقبل، واتجه لفلان رأي أي سنح، يقال: تَجَّهَ يَتَجَّهُ تَجْهًا، وهي لغة فيه»^(٢).

(١) الإمام الزبيدي: تاج العروس، ج ٩. ص ٤٢٠. المطبعة الخيرية بمصر، ط ١ (١٣٠٦هـ).

(٢) البستاني - الشيخ عبد الله: البستان، ج ٢، ص ٢٦٦١. المطبعة الأميركية، بيروت، ١٩٣٠م.

وقيل: «اتجه إليه: أقبل بوجهه عليه، أصله أوتجه، واتجه له رأي: سنح. تواجهها: تقابلا.

(التجاه): الوجه الذي تقصده، ويقال: قعدت تجاهك: تلقاء وجهك. وأصله وجاه»^(١).

نخلص من ذلك إلى أن الاتجاه يعني التوجه أو الإقبال نحو شيء ما، أو سلوك اتجاه أو منحني نحو هدف أو قصد معين.

أما كلمة وطني فمنسوبة إلى وطن، وورد تعريف الأخيرة على النحو التالي:

الوطن محرّكة، وهو منزل الإقامة من الإنسان ومحله، ويعني أيضاً مربط البقر والغنم الذي تأوي إليه، وهو مجاز (ج أوطان)، وأوطن: أقام. وأوطنه إبطاناً وتوطيناً. ونقول: استوطنه إذا اتخذته وطناً، أي محلاً ومسكناً يقيم فيه^(٢).

وجاء أن الوطن هو «المنزل الذي تقيم به، وهو منزل الإنسان ومحله، وأوطنت الارض ووطنتها توطيناً واستوطنتها أي اتخذتها وطناً. ووطن بالمكان وأوطن: أقام»^(٣).

وورد أيضاً أن الوطن هو «المكان الذي يقيم المرء فيه ويألفه، ووطن المكان: اتخذته وطناً يقيم فيه، ووطن نفسه على كذا أي مهدها له وحملها عليه. وأوطنه اتخذته وطناً. وتوطنت النفس على كذا: تحمّلتها وذلت له.

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ١٠٢٦. المكتبة العلمية، طهران، د.ت.

(٢) الإمام الزبيدي: تاج العروس، ج ٩، ص ٣٦٢.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، مجلد ٣، ص ٩٤٩. تقديم الشيخ عبد الله العلابي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، بيروت، دار لسان العرب، د.ت.

والوطن: هو المنزل الذي تقيم فيه، وربما سُكّن للضرورة»^(١).

وذكر كذلك أن الوطن هو «مكان إقامة الإنسان ومقرّه، ولد به أو لم يولد»^(٢).

هذا ومن المعلوم أن الوطنية «هي حب الوطن والشعور بارتباط باطني نحوه. وهي أيضاً ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تُعرف باسم الوطن»^(٣).
والواقع هو أن مفهوم الوطن في العصر الجاهلي كان يعني المنزل والقبيلة والعشيرة، ومع اتساع الحدود واختلاف الحضارة تبدل هذا المفهوم وأصبح يعني البلاد، لا البلد ولا المنزل الواحد، وقد يعني الأمة في اتساع مفهومه وعمق مدلوله.

وبعد أن كان الشعر الوطني يربط المرء بالأرض التي ولد ونشأ فيها، وأمدته بمعين الحياة، وصهرته بقيم الوجود، وربطت بينه وبين شؤونها وشجونها وسائل الاتصال والتعايش والتجربة، بات يبرز التوق إلى تعاون أبناء الوطن، وتوحيد صفوفهم، وتحرير أراضيهم من مظالم الحكام الجائرين والمستعمرين البغاة.

ولكن معنى الوطنية اختلف أيضاً مع العصور وتغير المفاهيم منذ الجاهلية حتى عصرنا هذا.

ولقد تطور الشعور بالوطن مع استقرار العرب، وتحول الوطن إلى مفهوم يمد الوطن بأسباب الحياة وعناصر الوجود، بحيث أصبح للإنسان فيه

(١) رضا - الشيخ أحمد: معجم متن اللغة، مجلده ٥، ص ٧٧٧ و ٧٧٨. دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

(٢) معجم اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ١٠٥٤.

(٣) الحصري - ساطع: آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ص ٩. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.

مجالات يحقق من خلالها دوره ويجسد مطامحه. وبات الشعور الوطني أسمى من الشعور الفردي في التعلق بأرض أو بمكان، وأصبح ينم عن شعور باحتضان الأرض والتجاوب مع القاطنين فيها، والتمسك بالتراث، والتطلع إلى تحقيق الآمال، وهذا ما يتطلب مضاعفة الجهد، وتكثيف المشاعر وتلاقح الرغبات وتعاون المواطنين وتضحياتهم في سبيل أهداف مشتركة.

وبعد اتساع رقعة الوطن العربي وإقامة حضارته في العصور العباسية مرّ الشعور الوطني العربي بالقلق والثورة أمام مخاطر الشعوبية، ثم اتسع مفهوم ذلك النضال وأثره في هذا العصر، وأصبح يتطلب إدراكاً عميقاً بضرورة التماسك والتجاوب الشامل، حتى بات يعني الاهتمام بحرية الإنسان ودوره في العمل النافع، بحيث تتكافأ الفرص وتتساوى الحقوق والواجبات.

أما حبّ الوطن فهو يتضمن بطبيعة الحال حب المواطنين الذين ينتمون إليه، كما أن حبّ الأمة يتضمن - في الوقت نفسه - حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة.

ويمكننا القول إنّ الاتجاه الوطني في الشعر هو المنحى الذي يعرض فيه الشعر شؤون الوطن والمواطنين: فيدعو إلى حب الوطن وحمانيته، والحفاظ على حقوق المواطن، وردّ كيد العدو، وحفظ عهد الصديق، ويعكس مواقف النضال والقوة والعزّة ضد المستغلين والمستعمرين، ويعالج مواطن الضعف والتقصير من جهة ثانية، ويدافع عن الجماهير وحقوقها وتراثها، وينافح عن مقدساتها وحرّيتها واستقلالها، بجرأة وعناد، من غير أن يؤثر فيه ترغيب أو ترهيب.

وهو ينبعث من عاطفة صادقة وشعور داخلي، بحيث تلقاه يتفاعل مع مختلف القضايا، وترجم الأحداث والتطورات التي تحدث في بيئته، وتلك التي تحصل في محيطه.

والشاعر الوطني هو الذي يلتزم تصوير آلام أمته وآمالها، ويتغنى بأفراحها وأتراحها، يدافع عن وطنيته، ويتمسك بقوميته ويعبر عن موافقه الثابتة بصراحة وشجاعة، ولا يثنيه عن سبيله تهديد أو وعيد، ويبدو في هذا كله الالتحام الصادق بين الطرفين الشاعر ووطنه، بحيث يكون الشاعر نفسه هو الثائر الرائد.

ب - البطولة والوطنية في بلاد العرب

يزخر الأدب العربي عامة، والشعر خاصة، بقصص البطولة الحقيقية - لا المسرحية ولا الأسطورية - هذه البطولة التي تعني الغلبة على الأقران. وهي غلبة يرتفع بها البطل عمّن حوله من الناس العاديين ارتفاعاً يملأ نفوسهم له إجلالاً وإكباراً.

وفي عهود الحياة الأولى وأيام الجاهلية كانت القبيلة تقدر البطل وتكرمه وتعتبره هبة تحميهم من الوقوع فريسة بيد سواهم^(١) وهذا ما يذكرنا ببطولة عنترة بن شدّاد العبسي وأمثاله.

والمعروف أن البطولة وحب الوطن أمران ظلاً يضطرمان في معارك العرب منذ ذلك الحين والتاريخ مروراً بالعصر الإسلامي، وبطولة علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وطارق بن زياد وأمثالهم، وصولاً إلى بطولة صلاح الدين الأيوبي وقهره الصليبيين، بدءاً بمعركة حطين التي جرت سنة ١١٨٧م، إلى قيام ثورة العرب الكبرى على الدولة العثمانية عام ١٩١٦م وطرد الأتراك، إلى محاربة العرب - في هذا القرن - جيوش الدول الاستعمارية التي كانت تحتلّ عدداً من الأقطار العربية، مثل: بريطانيا، فرنسا، إيطاليا وإسبانية، بغية التحرير وتحقيق الحلم بالدولة العربية المستقلة، وانتهاء بمحاربة العرب للقوات الصهيونية في فلسطين منذ أوائل هذا القرن وحتى

(١) شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي. ص ٩.

الوقت الراهن. وهذا ما يستوجب تسجيل أسمى مشاعر الاعتزاز والفخر بالمناضلين العرب بوجه عام، وبالشهداء الأبطال منهم خاصة، الذين استشهدوا في سبيل الأهداف النبيلة، دفاعاً عن وطنهم وشعبهم.

وبفضل تضحيات أبطال العرب وشهدائهم تحققت لهم انتصارات كثيرة، وآمال كبيرة، وارتفع لهم مجد، بزوا فيه أعداءهم إلى أبعد حد. وللوطن حقّ ودين على أبنائه، ينبغي عليهم أن يؤدوه في كل حين، بكل إخلاص وحماسة، حتى لو اقتضى الأمر أن يفدوه بدمائهم وأرواحهم. وها هو الشعب الفلسطيني يسير على خطا أجداده العرب الميامين، فيتسمك بوطنه المقدس، ويناضل من أجل تحريره واستقلاله، معتبراً إيّاه صنو روحه، بل إنّ أبطال فلسطين يجودون بأرواحهم في سبيله، ولا تفتري لهم عزيمة ولا يتزعزع فيهم إيمان.

ومما يجدر ذكره أنه بالرغم من النكبات المتلاحقة التي حلّت بهذا الشعب، والجراح الأليمة التي ألمت به، فإن إرادته لا تنثني، وعزيمته لا تلين، ولن يهدأ له بال قبل التحرير والعودة.

وقد واكب الشعر العربي كلّ هذه الأحداث وأبرزها بصورة واضحة لا زيف فيها ولا غموض، حتى أصبح سجلاً حافلاً بالأحداث والتطورات، فضلاً عن ملاحقة تطور هذا الشعر شكلاً ومضموناً، بل إنه كان وما يزال يشخص الداء ويصف الدواء، ويذود عن هذه الأمة، يوعّيها ويستنهضها ويشجّعها، ويرسم آمالها، ويقودها إلى شاطئ الأمان والخلاص والنجاح والتقدم.

ومن غير شك إن هذا الشعر قد تفاعل مع قضايا المجتمع ومشكلاته، وحمل همومه وأمنيته، وساعد على نمو الوعي الوطني، وتثقيف المواطنين وتعليم الطلاب، وتوجّه إلى نقد الأخطاء والمظاهر والعبادات الفاسدة، وأثار

سبيل المستقبل. وطراً على هذا الشعر بعض التجديد الذي سنحدده في الباب الثالث.

وشاركت المرأة في هذه الجهود على اتساعها، وبرزت شواعر فاضلات، سرن إلى جانب الشعراء يؤكدن مشاركتهن الرجال في تحمّل المسؤوليات، والقيام بالواجبات، فتشابكت أيدي المناضلين بالكلمة مع أيدي إخوتهم المقاتلين بالبندقية في الجهود الوطنية المختلفة. . .

وتزخر دواوين الشعر العربي وغيرها من الكتب بمئات بل آلاف الأبيات التي تندرج في مجالات الحماسة والفخر والوطنية، وعلى من يرغب الاطلاع على هذا الشعر أن يتوجّه إلى تلك المصادر.

ج - أبرز شعراء الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر

من خلال دراستي لعدد وافر من دواوين الشعر، والمراجع المختلفة، أستطيع تحديد أبرز الشعراء وتقسيمهم على الوجه التالي:

أولاً: شعراء ما قبل النكبة الأولى ١٩٤٨

إن أبرز هؤلاء الشعراء هم:

إسعاف النشاشيبي، سعيد الكرمي، سليمان التاجي الفاروقي، إبراهيم الدبّاع، إبراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود، مطلق عبد الخالق.

ثانياً: شعراء عاصروا النكبة

إن أبرز هؤلاء الشعراء هم:

عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، إسكندر الخوري البيتجالي، محمد العدناني، برهان الدين العبوشي، حسن البحيري، فدوى طوقان، محمود سليم الحوت، كمال ناصر، يوسف حسون.

ثالثاً: شعراء ما بعد النكبة

يمكن تقسيم هؤلاء الشعراء إلى قسمين:

أ - شعراء مشردون خارج الأرض المحتلة

وأبرز هؤلاء الشعراء هم:

هارون هاشم رشيد، علي هاشم رشيد، يوسف الخطيب، معين بسيسو، محيي الدين الحاج عيسى، كامل الدجاني، خالد أبو خالد، خالد نصره، محمد القيسي، سلمى الخضراء الجيوسي، دعد الكيالي.

ب - شعراء الأرض المحتلة خلال فترة البحث

وأبرز هؤلاء الشعراء هم:

محمود درويش، توفيق زياد، سميح القاسم، راشد حسين، حنا أبو حنا، سالم جبران، حبيب قهوجي، فوزي الأسمر، عيسى اللوباني، عبد الرحيم عمر.

ولمّا كنت قد أشرت في التمهيد إلى أهم الأحداث والتطورات التي وقعت في فلسطين خلال فترة البحث، ثمّ لقيت - في الباب الأول - نظرة على تطور الشعر في فلسطين، ومواقفته لمختلف جوانب الحياة، والأحداث والتطورات، فإنني أكتفي بذلك تجنباً للتكرار، وأتوجّه إلى دراسة شعر هذا الاتجاه خلال خمسين سنة، تمتدّ من ١٩١٨ إلى ١٩٦٨ م.

الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر

مقدمة لدراسة هذا الاتجاه

فلسطين، هذه البقعة المقدسة، المباركة على سطح الكرة الأرضية، مميزة بخيراتها وثرواتها، محبة إلى خالقها وباريها، مشرفة بالأنبياء الكثر، والرسالات السماوية، ولكنها مبتلاة بالغزاة والطغاة منذ أقدم العهود بلاء الأنبياء، مؤمنة صابرة صامدة، كإيمان الأنبياء وصبرهم وصمودهم. كان أهلها وسيبقون قوماً جبّارين، حرّروها مراراً من المحتلين والطامعين، فجلبت أرضها بدمائهم، وتلألأ حبّها بقلوبهم، فتلونت بها عيونهم، واخضرت عروقهم، ومن أجل الحرية التي يقدسون كانوا رأس الحربة في جيوش صلاح الدين، ومعركة حطين، ثم في مقدمة المُطالبين للدولة العثمانية بالحرية والاستقلال، ومن ثم في مقدمة المشاركين في الثورة الكبرى عام ١٩١٦، وما دروا أن الإنكليز والفرنسيين قد أعدوا ما يسمى باتفاقية «سايكس بيكو»، لاقتسام البلدان العربية التي دخلوها يومئذ مع الجيوش العربية، بحجة المساعدة على تحريرها، وما لبث الإنكليز أن نصبوا أنفسهم دولة انتداب على فلسطين والأردن والعراق، ثم أصدر وزير خارجيتهم آرثر جيمس بلفور وعداً لليهود بإنشاء دولة لهم في هذه الأرض العربية الأصيلة.

وكان تقسيم بلاد العرب عاملاً يساعد على إضعاف الأقطار العربية، ومقدمة للانفراد بفلسطين، تمهيداً للتحكم بها أرضاً وشعباً، بحيث يسهل على الإنكليز والصهيونية إقامة دولة لليهود، في وقت يلهو فيه كل قطر عربي بقضاياه وشؤونه الخاصة.

ومنذ ذلك الحين بدأ الشعب الفلسطيني يمارس نضاله الوطني منفرداً إلى حد بعيد، حيث راح هذا الشعب يقاوم المؤامرات الكثيرة على وطنه، وأهمها استقدام اليهود من أقطار العالم، اعتقاداً بأنهم يعودون إلى وطن كان لهم في الماضي، ثم يجري تدريبهم وتسليحهم، فضلاً عن إنعاش اليهود عامة بالمشاريع الإنمائية والاقتصادية. . .

وبين عام ١٩١٨ و ١٩٤٨ انطلقت مظاهرات حاشدة ونشبت صدامات وثورات عديدة، أهمها ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ضد الإنكليز. ولما بدأت حرب عام ١٩٤٨ راح اليهود المدعمون بأسلحة حديثة من مختلف دول أوروبا وأميركا يُعملون هذا السلاح في قتل العرب، وهدم قراهم ومدنهم، وقاموا بمذبحة شنيعة في بلدة دير ياسين، معتمدين بث الذعر والخوف في القلوب، وما لبثوا أن أجلوا السكان العرب عن طبرية وحيفا ويافا وغيرها من المدن والقرى^(١)، فاضطر النازحون إلى الالتجاء إلى أماكن آمنة في فلسطين، وإلى البلدان العربية المجاورة، وأنشأ اليهود دولتهم الباغية، فدخلت فلسطين كتائب جند من سبعة جيوش عربية لنجدة الشعب الفلسطيني ومساعدته في نضاله ضد اليهود، ولكنها لم تستطع أن تحمي فلسطين أو تستعيد شيئاً منها، فوقع معظمها فريسة بيد القوات الصهيونية، وبقيت منطقتان من فلسطين خارج قبضة اليهود، فأعلن في مؤتمر أريحا - الذي عقد في ١٢/١/١٩٤٨ - ضمّ الأولى إلى المملكة الأردنية الهاشمية، وسمّيت «الضفة الغربية»، بينما أصبحت الثانية «قطاع غزة» تحت إشراف مصر.

وتركت المأساة أثرها الكبير في «اللاجئين» الفلسطينيين في كل مكان حلّوا فيه، وعلى السكان العرب في الأرض المحتلة أيضاً. . .

وعُقِدَت اتفاقيات هدنة بين دولة «إسرائيل» من جهة، والدول العربية

(١) صالح الأستر: في شعر النكبة، ص ٣٣.

المجاورة، من جهة ثانية، ثم توالى على أرض العرب أحداث مختلفة أهمها العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، ثم قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨، عدا حصول «انقلابات» وتبدلات في أنظمة حكم بعض الدول العربية، وبقي العرب عامة والفلسطينيون خاصة يتوقفون إلى تحرير فلسطين فأنشئت منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمات فدائية أخرى، معتمدة الكفاح المسلح أفضل وسيلة لتحرير فلسطين، ولكن العدو انتهز بعض الإجراءات التي اتخذتها مصر حينئذٍ، بينها إغلاق خليج تيران، وبادر إلى شنّ عدوان جديد في حزيران عام ١٩٦٧، وقام بتوجيه ضربة قاسية إلى أجهزة الطيران المصري وقواته المسلحة، التي كانت تستعد لقتال قوات العدو، وتمكن الجيش «الإسرائيلي» من احتلال بقية أجزاء فلسطين، وسيناء، والجولان.

وتدفق المزيد من «اللاجئين» إلى البلدان العربية المجاورة، وإن كانت نسبتهم أقل منها في عام ١٩٤٨، وأصبح هؤلاء مضطرين إلى الإقامة في الخيام، ومواجهة الظروف القاسية، وقبول المساعدات التي تقدمها لهم وكالة هيئة الأمم المتحدة، بعد أن فقدوا أرض الخيرات، وبيرتهم التي كانت تمتلئ بالرياش الوفيرة، والأرزاق الكثيرة.

وها هو شعب فلسطين يضمّ جراحه، ويزداد تمسكه بفلسطين، ويتعاضم إصراره على بذل كل جهد وتضحية من أجل تحريرها، ولقد سار في هذه الطريق الطويلة الشاقة، ولن يقلّ له عزم، أو تلين له قناة، لأنه يؤمن بحقه، وبحتمية النصر بعون الله، وإن طال الزمن وكثرت التضحيات.

ولا يساورني شك بأن الشعب الفلسطيني يعتبر في مقدمة الشعوب التي دفعت أفدح ثمن في سبيل الحرية والاستقلال.

كان شعراء فلسطين وسيبقون لسان حال شعبهم في المناسبات والأحداث والتطورات المختلفة التي يواجهونها معاً ويكشفون له القناع عما

يدور في الخفاء، وما يحتمل وقوعه، وينيرون له الدرب، حاملين مشعل الكلمة بل الشعر في يد، وسلاح التحرير في اليد الأخرى، وقدموا القرايين الغالية من أجل فلسطين وأهلها، وبمقدمتهم المقاتلون الشهداء مطلق عبد الخالق، نوح إبراهيم، عوض، عبدالرحيم محمود، حميد، وكمال ناصر، فضلاً عن شهداء آخرين من الكتاب بمقدمتهم غسان كنفاني.

وهكذا غدا الشعر الفلسطيني معلماً من معالم الوعي العربي، ومظهراً من مظاهر يقظة العرب عامة وفلسطين خاصة.

وتحمل معظم شعراء الأرض المحتلة، وفي مقدمتهم محمود درويش، توفيق زياد، سميح القاسم، حنا أبو حنا، وحييب قهوجي صنوف الاضطهاد والتنكيل كالطرد من العمل والاعتقال، والنفي إلى مكان آخر داخل الأرض المحتلة، والإقامة الجبرية وكبت الحريات، ورغم ذلك آثروا فضح العدو، وكشف مخططاته، وإنارة الطريق لإخوتهم، وفضلوا الصبر والصمود على الخنوع، والتخلي عن النضال، والكلمة الموضوعية الهادئة الصادقة مهما كلفهم ذلك من مشاق وعذاب، وظل شعرهم ملازماً لمسيرة النضال الوطني، ولهذا كله بات من الحق والعدل أن يُعدَّ شعرهم مقاتلاً وثورياً. ولو جرت مقابله مع أي شعر ثوري آخر في العالم لوجدنا أنه لا يقل عنه كمّاً ولا نوعاً، أما تأخره في الشكل، فقد ذكرنا أسبابه في الباب الأول.

ومع هذا كله نسأل: ماذا كان على شعراء فلسطين عموماً أن يقولوا - تجاه ما نشهده جميعاً - أكثر ممّا قالوا، وأن يفعلوا أكثر ممّا فعلوا؟!!!

وإذا كان أعداؤنا يزدادون إمعاناً في الظلم والعدوان والباطل، فإن شعراءنا وسائر مناضلينا يزدادون تمسكاً بالحق والنضال والتضحية، حتى يتحقق النصر بإذن الله.

وفي عرضنا التالي لدور الشعراء وشعرهم سنراعي إلى حد كبير التسلسل الزمني لهذا الشعر وتاريخ نظمه، تبعاً لتسلسل المناسبات والأحداث، ثم نقدّم مقتطفات لعدد من الشعراء في كل منها.

أولاً: الدعوة إلى الوحدة الوطنية والتحرير ونبذ التفرقة والانقسام

كانت هذه البلاد منذ أقدم العهود موضع طمع الطامعين، وعندما دخل المستعمرون بلادنا عملوا على تفكيك وحدتها، وإضعاف قوتها، والتقت مطاعمهم مع مطاعم الصهيونية في فلسطين، فراحوا يُذكون معاً روح البغضاء والعداوة والأحقاد بين صفوف المواطنين العرب، بغية تفريقهم وتمزيق شملهم، في حين عمل الإنكليز على استقطاب الزعماء والوجهاء العرب وإرضائهم بالمناصب، ليكونوا أعواناً لهم في إحكام قبضتهم على جماهير الشعب وتنفيذ مآربهم، ولكن هذه الجماهير أدركت تلك المؤامرات المتوالية، وتطوّع الوطنيون المخلصون لإحباطها، وفي مقدمتهم الشعراء والكتاب. ومن هنا فإنّ أشهر شعراء الوطنية وأبرزهم هم شعراء العصر الحديث...

وكان شعراء فلسطين في مقدمة الذين أدركوا ما يخطط له أعداء العرب، فراحوا يفتنمون كل مناسبة للتصدّي للمؤامرات ودحرها: فقاموا بتنبية المواطنين إلى الأخطار المحدقة، ورفض التفرقة، وكشف المؤامرات، والدعوة إلى وحدة الصف والتضامن، والتخلّي عن الأهواء والأنانيات، وحلّ الخلافات الداخلية بالحوار والحكمة والتسامح، والتعالي فوق الخصومات الداخلية، ليتمكّنوا من التصدي سويّاً، وبقوة فاعلة للخطر المحدق بهم جميعاً، حتى لا تحرقهم نيرانه ولو على مراحل...

وسنعرض الآن دور عدد من الشعراء في المجالات المشار إليها، ممّا يمثل نموذجاً يغني عن الكثير ممّا لا يتسع له المجال.

أ - وبرز «إسعاف النشائيي» على رأس الذين وعوا المؤامرة مبكراً، ونبهوا قومهم إلى الخطر المحدق بفلسطين، ودعوهم إلى نبذ البغضاء، وإلى رأب الصدع واليقظة، قائلاً في قصيدة «فلسطين والاستعمار الأجنبي»: [الرمل]

فدعوا شحناءكم يا هؤلاء وانبذوا البغضاء نبذاً والعداء
إن هذا الداء قد أمسى عياء فتلافوه سريعاً بالدواء
إنها أوطانكم فاستيقظوا لا تبيعوها لقوم دخلاء
فاعلموا يا قوم إن لم تعلموا أن عقباكم هلاك وفناء^(١)
إن هذا جزء من قصيدة طويلة، يدل على وعي مبكر على خطط
المستعمر، وعلى جرأة وإخلاص وتجرّد في المبادرة إلى تأمين مقومات
الصمود ودحر المؤامرات، منبهاً شعبه إلى ضرورة معالجة أمراضه الداخلية
أولاً، حتى يستطيع الصمود وتحقيق الآمال، والنجاة من الهلاك والفناء.

ب - وهذا هو الشاعر الوطني إسكندر الخوري البيتجالي ينهض داعياً
إلى وحدة المسلمين والمسيحيين، ورأب الصدع بينهما، إثر الخلاف الذي
نشأ بين المسلمين والروم الكاثوليك في حيفا على المقبرة التي ادعى كل
من الفريقين ملكيتها، مما أدى إلى مقتل «جميل البحري»، واستغل هذا
الحادث بعض الساعين إلى إثارة الشقاق والنزاع بين أبناء الوطن الواحد،
لتحقيق مآربهم وغاياتهم الخبيثة.

يومئذ وقف هذا الشاعر داعياً إلى الوحدة الوطنية، ونبذ التعصب
المذهبي البغيض، كي يتمكن الجميع من تفويت الفرص على المستغلين
والأعداء، ويواجهوا معاً المخاطر والمؤامرات التي تهددهم جميعاً، فقال:

(١) عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسيني الحديث، ص ١٦٧، نقلاً عن: النفائس
العصرية، ج ١٢/ شهر تشرين الأول سنة ١٩١٠، المجلد الثاني، ص ٥٧٦ - ٥٧٧.

لا لن تنال من اتحا
 كلاً ولن تصدع ما
 كنا وما زلنا كما
 قبل المسيح وأحمد
 كانت وما زالت لنا
 ماذا جرى حتى تغير
 عهدنا فيما مضى
 أخشى على هذي البلا
 خلف الرماد وميض نا
 إني على الوطن العزيز
 وطني فديتك بالنفو
 القائلون (جميلنا)
 أما الخصوم فيرجعو
 إني أراهم للعر و
 يتوقعون الخلف بي
 أما فلسطين الحبيب
 تحتاطها عين العنا
 ولها من العقلاء در
 إن المسيحيين في
 دين الجدود به ندي
 د الأمتين يد الفتن
 بينهما هذي المحن
 كنا فدى هذا الوطن
 كنا وما زلنا عرب
 أوطاننا أمماً وأب
 عهدنا فيما مضى
 د طلائعاً فيها الهوان
 شرها لا يستهان
 ز أخاف من هذا الدخان
 س بكل ما عندي ثمين
 لهم جزء القاتلين
 ن عن الغنيمة خاسرين
 بة من بعيد كامنين
 ن صفوفها في كل حين
 بة فهني في حصن حصين
 ية رغم أنف المرجفين
 ع لا تهون ولا تلين
 ها إخوة للمسلمين
 ن ولا نزال به ندين^(١)

يشير هذا الشاعر إلى وحدة المسلمين والمسيحيين في هذه البلاد فيما مضى، حتى قبل نشوء الديانتين المسيحية والإسلامية، باعتبارهم أبناء شعب عربي واحد، ثم يبدي خشيته وقلقه على هذا الوطن من المرجفين

(١) ديوان العنقود، ص ٦٢ - ٦٣. مطبعة بيت المقدس، القدس، د.ت.

والطامعين، ويؤكد ثقته بالعقلاء الذين يقومون بدورهم الإيجابي، لا محالة، ويفشلون المؤامرة، ويحفظون وحدة أتباع هاتين الديانتين كأخوة في صف واحد، وكأنهم أتباع دين واحد.

وهذا دور إيجابي مشرف، كان له تأثيره الطيب بين أبناء وطنه، كما بقيت ذكراه العطرة تتردد في كل مناسبة.

ج - ويشير الشيخ سليم أبو الإقبال اليعقوبي إلى علاقات الصداقة والمودة التي تربط بين المسلمين والمسيحيين، ويرى أن عوامل الوفاق بينهما أقوى من عوامل الهدم، ويقول: [الرمل]

المسيحي منهم والمسلم في ولاء، في إخاء، في اتفاق
لم نجد بينهما ما يهدم ما ابتناه اليوم في الضاد الوفاق
وابتنته في فلسطين الشيم^(١)

د - وبارك إبراهيم طوقان المؤتمر العربي العام الذي عُقد في القدس في عام ١٩٢٨، ويدعو إلى التضامن والوفاق، ويحذّر من الانجراف خلف المشاغبين والمرجفين في قصيدته «تفاؤل وأمل»، حيث يقول: [مجزوء الكامل]

الله ثم الله ما أحلى التضامن والوفاقا!
بوركت مؤتمراً تألف لا نزاع ولا شقاقا
كم من فؤادٍ راق فيه، ولم يكن من قبل راقا
اليوم يشرب موطني كأس الهناء لكم دهاقا
لا تعبأوا بمشاغبين ترون أوجههم صفاقا

لا تحفلوا بالمرجفين فإن مطلبهم حقيزُ

(١) النظرات السبع، ص ١٠. مطبعة الجمل المصرية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.

سيروا بعين الله، أنتم ذلك الأمل الكبيرُ
سيروا فقد صفتِ الصدورُ، تباركت تلك الصدورُ
سيروا فسنتكم لخير بلادكم خيرُ السُننِ
شدوا المودةَ والتآلف والتفاؤلَ في قرنِ
لا خوفَ إن قام البناء على الفضيلة وارتكن: (١)

إن إبراهيم يرى الأمل في وحدة المؤتمرين، ويشجعهم على الحفاظ
على المودة، والتآلف، والتآزر فيما بينهم، وهو يطمئنهم خيراً إذا ما نهضت
البلاد على هذه المرتكزات.

وفي رثاءٍ للشيخ سعيد الكرمي الذي توفي سنة ١٩٣٥ يحذر من التمزق
والضعف الناتجين عن النعرات الحزبية التي اشتدت وطأتها يومئذ، يقول:
[الخفيف]

ليت قومي تخلقوا بكريم الخلق هذا، عند الخصام الشديدِ
ما لكم بعضكم يمزق بعضاً أفرغتم من العدو اللدود؟
أذهبوا في البلادِ طولاً وعرضاً وانظروا ما لخصمكم من جهودِ
والمسوا باليدين صرحاً منيعاً شاد أركانه بعزمٍ وطيدِ
شاده فوق مجدكم، وبناءه مشمخراً على رفات الجدودِ
كل هذا استفاده بين فوضى وشقاق، وذلة، وهجودِ
واشغالٍ بالترهاتِ وحبِّ الذ ات من نافع عميمٍ مجيدِ (٢)
يسأل الشاعر المتخاصمين متهكماً وموتخاً...، ويبين لهم مدى
الخسارة التي حاقت بالبلاد بسبب لهوهم بالنعرات، والتناحر، وانصرافهم عن
درء المخاطر الحقيقية، مستهدفاً توعيتهم وإيقاظ ضمائرهم، وإنقاذ الوطن.

(١) ديوان إبراهيم، دراسة إحسان عباس، ٦٠ - ٦١، دار القدس، بيروت، ١٩٧٥م.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٦ - ١٧٠.

هـ - ويدعو إبراهيم الدبّاغ إلى الاتحاد والعمل، والدأب بدون كلال،
فيقول: [الرجز]

عودوا لجمع الشّملِ بعدَ فرقةٍ طويلاً حبّاً بتوثيقِ العُرى
لا نامَ أهلها ولا كَلَّ أبْنُها سعيّاً وأن سَغِيه سوف يُرى^(١).
و- ويشجّع برهان الدين العبوشي على العمل الجادّ والتّأخي قائلاً:
[الخفيف]

نَعْمُرُ الأَرْضَ لا نكوُنُ عليها عالَةً نرتجي يدَ الإحسان
إنّما الخيرُ كلّه بالتّأخي وبرصّ الصفوفِ دونَ تَوّان^(٢)
ز- ويناشد الشاعر الشهيد عبد الرّحيم محمود بني قومه أن يفيقوا من
غفلتهم، ويتحدوا، ويناضلوا بصلاية دون تردّد، قائلاً: [الوافر]

بني قومي أفيقوا من رُقادٍ فما بعد ألتّعسفِ من رُقادٍ
قفوا في وجه أيّ كان صقاً حديداً لا يؤول إلى أنفرادٍ
ولا تجموا إذا أزدت سماءً ولا تهنوا إذا ثارت بوادي
ولا تقفوا إذا الدنيا تصدّت لكم وتكاتفوا في كلّ نادي^(٣)
ح - ويهيب يوسف الخطيب بأخيه العربي الأبيّ، بعد نكبة عام ١٩٤٨
الأ يهون ولا يذلّ ولا يستكين، ويحضّه على لبس رداء العزّ والجهاد، والبقاء
متأهباً للقتال، متفائلاً بالنصر والتحرير في يوم الثّار الموعود، حيث يقول
[مجزوء الوافر].

أخي، إن عشتَ ذلّ الأُمسِ مغلوباً على أمرِك

-
- (١) في ظلال الحرية، ص ٦٢. القاهرة، ١٩٥٤م. وعبد الرحمن الكيالي في كتابه:
الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، ص ١٦٨.
(٢) النيازك، ص ٥٠، دار البصري - بغداد، ١٩٦١م. وعبد الرحمن الكيالي في كتابه:
الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، ص ١٦٨.
(٣) ديوان عبد الرحيم محمود، ص ١٤٢.

ذراعك هذه الشَّمَاء، لم ترضخ إلى سُرك
 حطّمت بها الحديد، ورحت والتاريخ في إثرك
 تصارع لَجّة الأقدار، تمعن في خطى ثأرك
 فقم، واسحب رداء العزّ مختالاً على فجرك
 فمن صدري تَوَزَّدَ صبح أمتنا، ومن صدرك
 أخي في القدس، ذاك جبينك المتطلّع الأسمر
 كلافته على دربِ المعادِ الشائك الأوعر
 كلافته تقول حروفها. . «لا بُدَّ أن أظفر»
 فخلّ على الزنادِ يداً، وخلّ يداً على الخنجر
 وإن جفنُ غفا في الليل، خلّ رفيقه يسهر
 لأن عُنُيك يوم الغمرة الموعود أن تثار^(١).

والشاعر الخطيب متمرس بالنضال، مدرك للواجب في الكفاح والسهر
 والحذر، وإبقاء اليد على الزناد، انتظاراً لخوض المعركة. . .

ط - ورأى الشاعر المناضل كمال ناصر أن تحقيق الأحلام يتطلب
 تنظيم صفوف الشعب، ووضع خطة حكيمة للنضال والتحرير، ويبدو أنه كان
 يستند في رأيه هذا إلى منهجه العقائدي، وإيمانه بأن شجاعة العقل أهم من
 شجاعة القلب، ويقول: [الطويل]

فيا وطني إن تبغِ عزّة ورفعةً تموج بأحلام، تظللنا الدهرا
 فنظم صفوف الشعب، نظم سبيله على هدفٍ وأع. . وحرية حمرا
 ندق بها باب الحياة عقيدة ونلهب في أرجائها العقل والفكرا
 على حلم للمجد في ظلّ رايةٍ موحدة الآمال، تستهض الفخرا
 تضمّ شتات العرب بأساً وعرةً يعانق قطرٌ في عربته قطرا

(١) ديوان عائدون، ص ٧٣ - ٧٧. دار الآداب، بيروت، ١٩٥٩م.

ويا وطني.. . نظم صفوف شبابنا وشدّ بهم للشعب في أرضنا أزرا
فما ضرنا، لو نظم الشعب نفسه وهياً للفردوس.. . عودته الكبرى^(١)
ومن غير شك أن إذكاء العقل، وإحكام الخطة، وتنظيم الصفوف،
والإعداد للمعركة من أهم شروط النصر والتقدّم، وآراء الشاعر في هذا الصدد
تدلّ على وعي عميق، وفكر ثاقب، وتجربة نضالية واسعة.

ي - ويؤكد توفيق زياد أن شعبه مصرّ على التحرير، وأن الظلم لن
يدوم، ويقول: [مجزوء الرمل]

أبي شيءٍ يقتل الإصرار
في شعب مكافح؟
وطني - مهما نسوا -
مرّ عليه ألف فاتح
ثم ذابوا
مثلما الثلج يذوب!

لستُ عرّافاً،
ولا أفتح في الرملِ
ولا أقرأ النجوم
إنما أعرف أنّ الظلم
شيءٌ عابرٌ ليس يدوم!^(٢)

ك - ويرفض راشد حسين البكاء، وينبّه شعبه مذكراً بأن السادة الأحرار

(١) الآثار الشعرية الكاملة، إعداد وتقديم إحسان عباس، ص ٦٩.

(٢) غسان كنفاني: الأدب الفلسطيني المقاوم، ص ١٤٠ و ١٤١.

لا يطيقون أطواق الحديد، ولا ينامون على الذلّ والاضطهاد، ويناشد
«الشباب» الحرّ أن ينتفض، ويحضّ المرأة على مشاركة الرجل في الجهاد،
وتحقيق الآمال، ويقول: [الكامل]

ليس الغدُ الآتي لشعبٍ نائمٍ	والمجدُ ليس يناله بكاءُ
لا صبرَ إلا للعبيد فأيناً	عبدٌ وأين السادة الأمراء؟!!
اليوم تنفجرُ النفوسُ تمرّداً	وظلامُ درب الثائرين يُضاءُ
خُلّ الشبابُ الحرّ يرفعُ صوتهُ	ولينتحر أو يغضب الكبراءُ
لا يوقظ الشعبَ النؤومَ عجائزُ	شمطٌ وهنّ أميرةٌ شمطاءُ
بل فتيةٌ روى الشبابُ نفوسهم	فلهم على قمم السماء سماءُ
لن تُشرق الآمالُ في أوطاننا	إن لم تساعد آدماءَ حواءُ
قد أوشك الأمواتُ أن يستيقظوا	فمتى سينهضُ عندنا الأحياءُ
اليوم جئتُ وفي فؤادي لوعةٌ	فمتى أجيءُ وكلنتُ سعداءُ ^(١) ؟!!

وهكذا يبدو الشعراء حراساً يسهرون على حقوق الجماهير وسلامة
الوطن، فيحدّرون من الانقسام والتشرذم، ويدعون إلى التضامن والتعاون
ووحدة الصف، والنهوض بالمسؤوليات الجسم، التي تتطلب عزمًا وإصرارًا
وإدراكًا، وبدلاً دون كلل، لأن العدو يقف بالمرصاد، ولن تنتزع منه الأرض
المسلوبة إلا سواعد المناضلين، وبالتعاون والتضحية تتحقق الآمال.

ثانياً: التنديد بالانتداب وهجرة اليهود والوعود والقرارات الجائرة

أ - يتساءل إبراهيم الدبّاع عمّا إذا كانت غاية هذا الانتداب الاغتصاب
والظلم بعد أن أظهر العدل واللطف، ويقول: [البسيط]

ما الانتداب أمزماء وغايته	إذلال حرّ أبي حكم غير أبي؟
أم الانتداب يرامُ الاغتصابُ به	معنى وأحرفه في ذمّة العرب؟

(١) ديوان راشد حسين، مجموعة قصائد فلسطينية، ص ٩ - ١٢.

لَمَّا انتدبتم حَسِينَا خَيْرِ مُنْتَدِبٍ مَوْفُوقٍ وَابْتَلِينَا شَرَّ مُنْتَدِبٍ
مَلَأْتُمُ الْأَرْضَ مِنْ عَدْلِ وَأَغْنِيَةٍ عَنْهُ فَهَلْ أَخَذْتُمَا هِزَّةَ الطَّرْبِ؟
الْعَدْلُ شَعْرٌ خِيَالِيٍّ، حَقِيقَتُهُ فِي ذِمَّةِ الظُّلْمِ وَالتَّدْلِيسِ وَالكُذْبِ^(١)

فالشاعر الدُّبَّاعُ يشير إلى تصديق العرب لوعود الإنكليز لدى دخولهم بلادنا، ثم يكشف القناع عن الخديعة والتغريب بالعرب، حيث انكشف الأمر عن خداع وسيطرة، وظهر أن الوعود كانت خداعاً وتديساً.

ويرفض الشاعر ذاته وعد بلفور، باعتباره أغلوطة يحميها قانون جائر، لا أمراً منزلاً من السماء، ولذا يجب إلغاؤه، وفلسطين ليست وطناً بلا شعب لتمنح لشعب بلا وطن، ويقول: [البيسط]

ما وعد بلفور من أمر السماء ولا في الجذب من أرضنا زرع لمحتطب
هل وعد بلفور تشريع إذا فرطت أغلوطة منه تدعو الناس للعجب؟
ما حكمه بعد أحكام السماء ولا يرضى به بعد حكم الله غير غبي
يحوطه باسمه القانون معتصماً بنصه، ممعناً كالفيصل الدُّرْبِ^(٢)

ب - ويوجه إبراهيم طوقان نقده اللاذع إلى حكومة الانتداب، ويسخر منها، مشيراً إلى أنه لن ينسى لها الفضل بالوفاء بحق الصداقة، لأنها جاءت بوعد بلفور عازمةً على تنفيذه، ثم يتهمها قائلاً: لا بأس إن ساء حالنا، ويكفي أن تبقى هائلة سعيدة.

ويبلغ النقد والتهكم ذروتها عندما يعرض عليها قبول الجلاء عن البلاد، أو الإبادة، علماً ترضى!!، ويقول في قصيدته: «أيها الأقوياء»: [الخفيف]

قد شهدنا لعهدكم (بالعدالة) وختمنا لجندكم بالبسالة!

(١) ديوان الطليعة، ج ٢، ص ٨٣. مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.

(٢) المصدر نفسه.

وعرفنا بكم صديقاً وفتياً كيف ننسى انتدابه واحتلاله
وخجلنا من (لطفكم) يوم قلتم: وعد بلفور نافذ لا محالة
ولئن ساء حالنا فكفانا أنكم عندنا بأحسن حالة
غير أن الطريق طالت علينا وعليكم... فما لنا والإطالة؟!
أجلاء عن البلاد تريدو نَ فنجلو، أم محقنا والإزالة^(١)!

ولعمري إن في هذا الشعر بلاغة في المعنى والأسلوب، وكأني بالشاعر يقول للإنكليز ما معناه: ألا تخجلون من الغدر بنا؟! وكأنه أيضاً يوحى بالقول: ما دتم لا تستحون فافعلوا ما تشاؤون. ولكن تهكمه هذا، وعرضه للجلاء... لا يدلان على رضاه وخنوعه، بل يدلان على درجة عالية من الوعي والنقمة المشتعلة، والسخط، والرفض لكل صنائعهم الذميمة، وهو يرمي أيضاً إلى فضحهم، وردعهم!!

ومن المفارقات الغربية، ومن مهازل القدر أن الجلاء الذي تخيله إبراهيم حتماً يستحق السخرية قد حلَّ فعلاً بأهل البلاد الحقيقيين، وباتوا يسمعون بالعدالة المزعومة في جلب اليهود من أصقاع الأرض إلى أرض عربية وأهلها ينظرون بعين حاسرة، وأيدٍ كليلة...

ج - ويعلن كامل الدجاني أن شعبه لن يسمح لوعد بلفور أن يمرّ، ذلك لأنه سيحبطه ويقول في قصيدته «بوادر النكبة»: [الرمل]

إيه يا بلفور، هل تعرف ما قلته يوم وَعَدْتَ المبطلين؟
يوم إذ أقطعَهم أوطاننا موطنَ العرب الأباة الأولين
نحن يا بلفور فاعلم، لم نمت نحن أحياء، ولا نخشى المنون
نحن أبناء الألى تعرفهم منذ «حطين» ويوم الخالدين

(١) ديوان إبراهيم، ص ١٥٧.

شدّ ما تخطيء إن كنت ترى أن هذا الشعب لا يحمي العرين^(١)!

د - ويستمر شاعر فلسطين إبراهيم طوقان في الذود عن فلسطين، ويتصدى لهجرة اليهود، ويشير إلى كثافة القادمين إليها، إذ يعتمدون وسائل خبيثة تمكّنهم من البقاء فيها، ويناشد بني وطنه أن يستيقظوا ويتصدّوا لهذا الخطر الكبير، قائلاً في قصيدة عنوانها الرقم (١٠٠٠): [الطويل]

أرى عدداً في الشؤم لا كثلثة عشر، ولكن فاقه في المصائب
هو الألف لم تعرف فلسطين ضربة أشدّ وأنكى منه يوماً لضارب
يهاجر ألف ثم ألف مهرباً ويدخل ألف سائحاً، غير آيب
وألف جواز^(٢) ثم ألف وسيلة لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفي البحر آلاف كأنّ عبابه وأمواجه مشحونة في المراكب
بني وطني هل يقظة بعد رقدة وهل من شعاع بين تلك الغياهب
فوالله ما أدري، ولليأس هبة أنادي أميناً أم أهيب براغب^(٣)

ويقول إبراهيم في قصيدة ثانية بعنوان: «وردّ يغيض وهجرة تندفق»،
رثى فيها المرحوم كاظم الحسيني، والد الشهيد البطل عبد القادر الحسيني،
وقال: [الكامل]

با ابن البلاد وأنت سيّد أرضها وسمائها، إنني عليك لمشفق
أنظر لعيشك هل يسرك أنه وردّ يغيض وهجرة تندفق
ماذا يردّ الظلم عنك، أحسرة أم زفرة، أم عبرة تترقق؟
أم بثك الشكوى تظنّ بيانها سحراً وحجتها الضحى يتألّق!

(١) في غمرة النكبة، ص ٥٤. ط ١ (١٩٧١م/١٣٩١هـ)، د.م، د.ن.

(٢) المراد جواز سفر.

(٣) ديوان إبراهيم، ص ١٦٦. ويشير أخيراً إلى سماحة الحاج أمين الحسيني وإلى المرحوم راغب النشاشيبي، وكانا رئيسي الحزبين المتزاحمين في فلسطين.

لا تلجأناً إذا ظلمتَ لمنطقي فهناك أضيع ما يكون المنطق^(١)
وهو يرى أن العبرة والحسرة والزفرة لا ترد الهجرة، وليس هذا فحسب
بل إنه يستبعد أن تؤثر الحجة والمنطق فيها، وأن هذا العدوان لا يُرد إلا
بالقوة.

هـ - وبدافع الوعي والإخلاص يفضح عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)
الاستعمار الراجح فوق أرض الوطن العربي يومئذ، بوجهيه البريطاني
والفرنسي، قائلاً: [الكامل]

يا حادبين على الضعيف رويدكم تاريخكم في صفحتيه العار
فهنا تجزون القيود دوامياً وهناك في أيديكم الأزهار
وهنا الشياطين استجارت منكم وهناك أنتم قبة ومزار
لا تذكروا حقَّ الضعيف فكلكم مستعمرون وكله استعمار^(٢)
ثم يهزأ من قرار اللجنة الملكية البريطانية التي درست مطالب العرب
واليهود، فقررت تقسيم فلسطين، ويقول في ذلك: [الكامل]

أهدوا بلادي لجنة ملكية حتى تحلّ مشاكل المستقبل
درست فما وجدت سوى تقسيمها حلاً، فكان الحلُّ أكبرَ مشكل^(٣)
و- ويثور محمد العدناني على هيئة الأمم المتحدة التي أقرت في ٢٩/
١١ / ١٩٤٧، تقسيم فلسطين العربية إلى دولتين: عربية صغيرة ويهودية
كبيرة. وذكر أن هذه الموافقة تمت بعد أن رشى اليهود ممثلي عدد من الدول
بمبالغ طائلة، وقال: [مجزوء الخفيف]

أجهضت هيئة الأمم عندما باعت الذم

(١) ديوان إبراهيم، ص ١٤١.

(٢) ديوان أبي سلمى، ص ٣٨. دار العودة، بيروت، ط ١ (١٩٧٨م).

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩.

جَهْضُهَا دَوْلَةَ الرُّبَا وَالْمَوَاخِيرَ وَالنُّقَمَ
تَحْسَبُ الْمَالَ أَنَّهُ يَخْلُقُ الْعِزَّ وَالشَّمَمَ
بِئْسَ، وَاللَّهُ، دَوْلَةٌ لِلخَنَا تَرْفَعُ الْعَلَمَ

وُلِدَتْ أَمْسَ مَينَتَةٌ دَوْلَةُ الشَّرِّ وَالقَرَمَ
مَلَمَسٌ جِدُّ لَيِّنٍ وَفَمٌ مِنْهُ فَاضٌ سَمَ
لَيْسَ تَخْشَى زُعَافَهَا أُمَّةُ الْعِزْمِ وَالهِمَمَ
إِنَّ فِينَا حُوتَاتَهَا يُبْطَلُونَ الرَّدَى الْأَصَمَ
فَأَشْهَدِي دَفَنَهَا غَدًا وَيَكُ يَا هَيْئَةَ الْأَمَمِ (١)

وبعد أن أذعن زعماء العرب لإرادة الأعداء وأوقفوا حربهم مع اليهود للمرة الثانية في ١٨/٧/١٩٤٨ مخالفين إرادة شعوبهم، وتصريحاتهم السابقة بأنهم لن يقبلوا الهدنة التي يخسرون بها كل شيء، ثارت نفس الشاعر وقال:
[مجزوء الخفيف]

يَا رَعَادِيدُ يَا غَنَمَ غَادَرُوا هَيْئَةَ الْأَمَمِ
كَيْفَ تَخْشُونَ، وَيَحْكُمَ زَمْرَةً بَاعَتِ الذَّمَمَ
وَعَدَا الْحَقُّ عِنْدَهَا بَاطِلًا جِدُّ مَهْتَضَمَ
إِنَّ مَنْ أَضْرَمَ الْوَعْيَ نَازِلَ الْمَوْتِ وَاقْتَحَمَ
وَرَأَى الْمَجْدَ وَالْعُلَا فِي ظِلَالِ الرَّدَى الْأَصَمِ (٢)

ز - ويطلب حسن البحيري من شعبه أن يشد الرحال للقتال بعد أن
قضى قرار هيئة الأمم الجائر بتقسيم فلسطين، قائلاً: [الخفيف]

لَا الدَّمُوعَ الْغِزَارَ فِي النَّحْبِ تَمْضِي بَعْدُوْا وَلَا التَّأْوَهُ يُوْدِي

(١) ديوان اللهب، ص ٧٥ - ٧٦. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٥٤ م.

(٢) ديوان اللهب، ص ١٠٧.

فالبسي للنضال بأس الليالي وثبي للقتال وثب الفهود
قسّم الجوزُ موطناً أنتِ منه أُمَّةٌ أثَلتْ عروش الخلود^(١)

ثالثاً: دعوات لحماية الأرض والتنبه للمسامرة والمتآمرين

لما كانت الأرض تراثاً مقدساً ورثه الأبناء عن الآباء والأجداد، وتبعاً
لجذرية العرب في فلسطين وحبهم لها. اشتعلت قصائد الشعراء بالدعوة إلى
تنبيه الشعب للأخطار المحدقة، وإلى حماية الأرض، والصمود فيها، كما
دعوا إلى التمسك بها وعدم التنازل عن شبر منها بعد نكبتى ١٩٤٨ و١٩٦٧؛
وفي مقدمة هؤلاء الشعراء:

أ - شاعر فلسطين إبراهيم طوقان، وقد شجع العرب مراراً على
الحرص على الأرض والاهتمام بها، ويؤكد أن هؤلاء الحريصين عليها. هم
حماة البلاد الأول ودعامتها الكبرى، وهم خير من ينهج نهجاً أصيلاً مجاهداً
يستأهل الفوز، ثم يدعو لمعاوضة «صندوق الأمة» في إنقاذ الأرض من البيع
لليهود ويؤنب البائعين، ويقول: [الخفيف]

بارك الله في حريصٍ على الأر ضٍ غيورٍ يُنهي إليها اهتمامه
هم حماة البلاد من كل سوء وهم مَعْقِل الحصى ودِعامه
نهجوا منهج القوي وصَفُرا لجهادٍ منصورٍ أعلامه

آزروا القائمين بالعملِ الصا لح إنَّ الأبِّي هذا مقامه
آزروهم بالمال فالأرض صندوقٌ قٌ لِمالكم بل قوامه
اشتروا الأرضَ تشتريكم من الضئ م وآتٍ مُسْوَدَّةٌ أَيْامه

حبّذا لو يصوم منا زعيمٌ مثل «غندي» عسى يفيد صيامه

(١) هارون هاشم رشيد: مدينة وشاعر (حيفا والبحيري)، ص ٢٥٢.

لا يَصْنَعُ عن طعامه في فلسطين من يموت الزعيم لولا طعامه
لِيَصْنَعُ عن مبيعه الأرض يحفظ بقعة تستريح فيها عظامه^(١)

ويوجه لوماً وتقريعاً إلى مَنْ باعوا أرضهم جهلاً، وطمعاً بالذهب
والغنى، وليس بدافع الفقر والحاجة، فهم لا يفهمون أَنَّ الأرض أثنى كنز،
ولا يقدرون قيمة الوطن، ولا عاقبة فعلتهم، على الأحفاد بشكل خاص،
وعلى أنفسهم عامة، لا سيّما وأنهم سوف يحتاجون إلى أرض يُدفنون فيها،
فيقول: [البسيط]

باعوا البلادَ إلى أعدائهم طمعاً بالمال لكنما أوطانهم باعوا
قد يُعذِّرون لو أَنَّ الجوع أرغمهم والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
ويُلغَةُ العارِ عند الجوع تلفظها نفس لها عند قبول العارِ ردّاً
تلك البلادُ إذا قلتَ: اسمها وطنٌ لا يفهمون، ودون الفهم أطماعُ

أعداؤنا، منذ أن كانوا، صيارفةً ونحن، منذهبنا الأرض، (زُرَاعُ)
لو تعكسوا آية الخلاقِ، بل رجعت إلى اليهود بكم قُربى وأطباعُ

يا بائع الأرض لم تحفيل بعاقبة ولا تَعَلَّمْتَ أَنَّ الخصمَ خداعُ
لقد جنيت على الأحفادِ، والهفي وهم عبيدٌ، وخُدّامٌ، وأتباعُ!
وغرَّكَ الذهب اللّماع تُحرزهُ إنَّ السّراب كما تدريه لِمَاعُ
فكّر بموتك في أرضٍ نشأت بها واترك لقبرك أرضاً طولها باعُ^(٢)

لقد توقع إبراهيم الكارثة قبل وقوعها، وأجاد التعبير فيما نبه إليه،
وأخصّ بالذكر قوله بأن بائع الأرض يعتبر بائعاً للوطن، ثم قوله بأن الشريف

(١) ديوان إبراهيم، قصيدة «اشترى الأرض تشتريكم من الضيم»، ص ١٢١.

(٢) ديوان إبراهيم، قصيدة «إلى بائعي البلاد»، ص ٧٥.

الأبّي يصبر على الجوع، ولا يفترط بالأرض ويلبس ثوب الذلّ والعار، وقد أدرك الجميع الآن نتائج خطيئهم من ارتكبوها هذه الخطيئة.

ويشترى إبراهيم حملة على السماصرة بأسلوب تهكمي ينم عن مقدرة وذكاء وبراعة، حيث يصوّر السماصرة يتنعمون مكرّمين، وكأّتهم أهل نجدة البلاد، وإن أنكرتّهم...!! وهو بذلك يعكس الصورة، للتدليل على فظاعة الخطيئة، بأسلوب هزلي، ثم يعود معلناً أنّ هؤلاء أصل البلاء والخراب، وأنهم فوق ذلك زعماء الشعب رغم أنفهم. وأخيراً يرجو الخلاص من هذه الأمراض، ويقول في قصيدة بعنوان «السماصرة»: [البسيط]

أما سماصرة البلاد فعصبية عازّ على أهل البلاد بقاؤها
إبليس أعلن صاغراً إفلاسه لما تحقّق عنده إغراؤها
يتنعمون مكرّمين، كأنما لنعيمهم عمّ البلاد شقاؤها
هم أهل نجدتها، وإن أنكرتّهم وهمو، وأنفك راغمّ، زعماؤها!!
وحماؤها، وبهم يتمّ خرابها وعلى يديهم بيعها وشراؤها
كيف الخلاص إذا النفوس تزاحمت أطماعها، وتدافعت أهواؤها^(١)

ويشيد إبراهيم بكلّ أبّي شريف يرفض بيع أرضه بأيّ ثمن، ويشجّع الناس على الاقتداء به، قائلاً في قصيدة «يا رجال البلاد»: [الخفيف]

رحمّ الله مخلصاً لبلاد ساوموه الدنيا فأباها
لو أتوه بالتبر وزنّ ثراها لأباه وقال أفدي ثراها^(٢)

ب - وهاجم برهان الدين العبوشي السماصرة وبائع الأرض في قصائد عديدة، ومنهم أولئك الذين باعوا أرضاً فلسطينية من غير الفلسطينيين، وقال:

[البسيط]

(١) ديوان إبراهيم، ص ١٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٦.

باع (سرسق) تَبّاً لاسمه قطعاً من ملكنا وعيون الساكنين ترى
لهفي على المرج قد جلت مصيبته ولم يجد من بني الأوطان من ثأراً^(١)
وشتم الزعماء الفلسطينيين الذين باعوا أرضاً - في شخص أحدهم -
قائلاً: [الخفيف]

باع أرضاً دم القلوب سقاها فتغنى بماله وتزيّا
كيف ترجون يا أصحاب خلاصاً لبلاد زعيمها مات حيّا
سوف أبقى على الزعامة حرباً أو تنال البلاد عيشاً هنيئاً^(٢)
ج - وعندما نظم أبو سلمى قصيدة «يا فلسطين»، هاجم فيها السلطات
البريطانية لعزمها على إنشاء قصر للمندوب السامي البريطاني على جبل
المكبر، الذي زاره الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقامت
هذه السلطات بفصله من عمل التدريس في المدرسة الرشيدية وذلك في أوائل
عام ١٩٣٦، ومما جاء في هذه القصيدة: [الكامل]

جبل المكبر طال نومك فانتبه قم واسمع التكبير والتهليلا
فكأنما الفاروق دوى صوته فجلا لنا الدنيا وهزّ الجيلا
جبل المكبر لن تلين قناتنا ما لم نحطم فوقك الباستيلا^(٣)
د - وأعلن حسن البحيري، ابن حيفا الجميلة، أنّ فلسطين تراث ورثته
الأبناء عن أسلافهم، وأنها كانت وستبقى روضاً لهم، تزهّر فيها أمنياتهم.
وهذه بضعة أبيات من قصيدته «الشرق وأرض البلاد»: [الكامل]

أرض البلاد نعمت تحت لوانا وبقيت ما بقي الزمان حمانا

(١) النيازك، ص ٣٥. وسرسق هو إقطاعي لبناني كبير باع مرج بني عامر لليهود.
(٢) ديوان جبل النار، ص ١٧. بغداد ١٩٥٦.
(٣) ديوان أبي سلمى، ص ١٨. و «الباستيل» كناية عن قصر المندوب السامي البريطاني على جبل المكبر.

فلأنتِ خيرُ ترائنا من سادةٍ قد دَوَّخوا الأمصارَ والبلدانا
ولتبقين لنا على طولِ المدى روضاً غرسنا فيه زهرَ منانا
وطني سلمتَ لنا ودمتَ مُكرِّماً وبقيتِ موئلِ مجدنا وُعَلانا^(١)

وهو يستعذب الألم في الذود عن بلده، مؤكداً أنه يفديه بدمه مثلما
فداه الأجداد، ومن ذلك ما جاء في قصيدته «نشيد بلادي»: [الطويل]

بلادي بلادي لا عِدْمَتِكِ موئلا ولا زلتِ للعُربِ الأماجدِ منزلا
لعزكِ يومِ الذودِ ما أعذبَ الألم وما أرخصَ الأرواحِ إنْ خطبَ ألم
سَهَرنا على مجدِ العروبةِ لم ننمُ نشقُّ غبارِ الدهرِ بالسيفِ والقلمِ
وصيحتنا يومِ التقدمِ مثلما روى أرضكِ الأجدادُ نرويكِ بالدمِ^(٢)

هـ - ويقف محمود درويش، شاعر فلسطين المعاصر، موقفاً مجيداً من
الأرض، يعتبر مفخرة لأهل فلسطين في الالتحام بها، والتفاني في سبيلها،
ولعله يبلغ أعلى مراتب العزة والشرف. ومن أجمل أقواله في قصيدته «بطاقة
هوية» من مجموعة «أوراق الزيتون»:

سجّل: أنا عربي

أنا اسم بلا لقب

صبور في بلادٍ كل ما فيها

يعيش بفقرةِ الغضب

جذوري

قبل ميلادِ الزمانِ رستُ

(١) البحيري - حسن: ابتسام الضحى، ص ٣٧ - ٤٤. القاهرة. طبعة أولى، (١٣٦٥هـ/
١٩٤٦م).

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨ - ٢٩.

وقبل تفتُح الحقب
وقبل السرو والزيتون
وقبل ترعرع العشب

سلبتُ كروم أجدادي
وأرضاً كنت أفلحها
أنا وجميع أولادي
ولم تترك لنا
ولكل أحفادي
سوى هذه الصخور
فهل ستأخذها
حكومتكم كما قيل
إذن

سجل برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد
ولكنني إذا ما جُعت
آكل لحم مغتصبي
حذار . . حذار . . من جوعي
ومن غضبي (١)

(١) ديوان محمود درويش، ص ٧٣.

ويعلن في قصيدة ثانية بعنوان: «في انتظار العائدين» تمسكه ببلاده،
وتفضيله الصخرة فيها على اللآلئ، التي قد تُعرض عليه بديلاً منها... لأنه
يرفض أن يسافر أو يزحزح عنها... وإزاء ذلك فإنه سيبقى فوق هذا الصخر
أو تحته ليحميه، ولن يفترط به... ويقول:

يا صخرة صلتى عليها والدي لتصون نائر

أنا لن أبيعك بالآلئ

أنا لن أسافر...

لن أسافر...

لن أسافر...

وأنا مع الأمطار ساهد

سأظل فوق الصخر... تحت الصخر... صامد^(١)!

ثم يصيح في وجه الغاصب مؤكداً جذوره في أرضه، وحبه لها،
وتعلقه بها، وإصراره على الصمود فيها، قائلاً في قصيدة «وطن»:

هذه الأرض لي..

كنت قديماً

أحلبُ الثوقَ راضياً ومولهُ

وطني ليس حزمةً من حكايا

ليس ذكري

وليس حقلَ أهله

(١) المصدر السابق، مجموعة «عاشق من فلسطين»، ص ١٥١ - ١٥٢.

هذه الأرض جلدٌ عظمي

وقلبي

فوق أعشابها يطيرُ كَنَخْلَه

علقوني على جدائلِ نخله

وأشْتُفوني

فلن أطيّق المذلة^(١)

ثمَّ يخاطب وطنه الذي يحبه إلى حدِّ الموت في سبيله، ويتغنى
بجماله، ويهديه فؤاده وعيونه وحببه قائلاً في قصيدة «رباعيات»:

وطني! لم يُعْطني حُبي لك

غيرَ أخشابِ صليبي!

خُذْ فؤادي، خُذْ عيوني، خُذْ . . . حبيبي^(٢)

ويبلغ غاية التفاني في التضحية عندما يبدأ بإهداء أعزّ ما لديه وهو
فؤاده، ثم ما يليه وهما عينيّه ثم حبيبه، ولعمري أن شاعراً لا يستطيع أن
يقول أفضل من ذلك . . .

و - وينتصب توفيق زياد شامخاً صلباً عزيزاً أبتياً، معلناً استحالة تزحزحه
عن عقيدته وحقوقه قيد شعرة، وليس هذا فحسب، بل إنه لن يذلَّ
لاضطهاد، وسيبقى قطعة زجاج في عيون أعدائه: ينشد الأشعار، يقود
المظاهرات، ويملاً السجون كبرياء، ويصنع جيلاً ناقماً وراء جيل، قائلاً:

أهون ألف مرة

(١) ديوان محمود درويش، مجموعة آخر الليل، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) المصدر السابق، مجموعة أوراق الزيتون، ص ٦٤ - ٦٧.

أن تُدخلوا الفيل بثقب إبره
وأن تصيدوا السمك المشوي في المجره
أن تشربوا البحر
أن تُنطقوا التمساح
من أن تميتوا باضطهادكم وميضر فكره
وتحرفونا عن طريقنا الذي اخترناه
قيد شعره
كأننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل
هنا على صدوركم باقون كالجدار
وفي حلوقكم
كقطعة الزجاج . . كالصنار
وفي عيونكم
زوبعة من نار
نجوع ، نعري ، نتحدى
ننشد الأشعار
ونملاً الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملاً السجون كبرياء
ونصنع الأطفال جيلاً ناقماً
وراء جيل
برودة الجليد في أعصابنا

وفي قلوبنا جهنم حمرا
إذا عطشنا نعصر الصخرا
ونأكل التراب إذا جعنا
ولا نرحل
وبالدم الزكي لا نبخل
هنا لنا ماضٍ وحاضرٌ
ومستقبل (١).

ز - أمّا سالم جبران فيفضل أن يمدّوه - عندما يموت - في عناق التربة،
ويقول في قصيدة «حنين إلى القرية»:

يا إخوتي إن متُّ
مدوني على الأرض
بلا قبرٍ ولا لحد،
وخلّوني شهيداً

في عناق التربة الشهيدة (٢)

ثمّ يصرخ سالم جبران في وجه العدو، أنّ في وسعه فعل الكثير... ،
غير أنّه لن يستطيع أن يخنق لحنه وحبّه للأرض، قائلاً في قصيدة «بشير
الريح والمطر»: [مجزوء السريع]
يمكنكم أن تقلعوا الشجر

(١) غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، ص ٩٨ - ٩٩. وديوان توفيق
زياد، ص ١٩٧ و ٢٧٠.

(٢) قصائد ليست محدودة الإقامة، ص ٦. بيروت، ط ١ (١٩٧٠م).

من جبل في قرיתי
يمكنكم أن تحرثوا كل بيوت قرיתי
فلا يظَلّ بعدها أثر...
لكنكم لم تخنقوا لحني،
لأنني عاشق الأرض،
مغتي الرياح والمطر^(١)

ح - والشاعر خالد أبو خالد يريد أن يُحيي الأرض عنقاً وحباً، ويكون لها أوفى البشر معتقداً أنّ الجئة ما كانت إلا في الأرض، حيث يقول في قصيدة «عرس الأرض»:

لم نأكل تفاحة آدم
لكن أقسمنا
أن نحبي الأرض
عنقاً... حباً
ونصير لها أوفى بشر
.....

والجاهل أنّ الجئة ما كانت إلا في الأرض
والأرض حبيبتنا^(٢).

ط - وینخبّرنا کامل الدجاني في قصيدة له بعنوان «داري» أنّه نبت في

(١) قصائد ليست محدودة الإقامة، ص ٩ - ١٠.

(٢) وسام على صدر الميليشيا، ص ٥٦ و ٥٧. دار الآداب، بيروت، ط ١، (١٩٧١م).

ثرى أرضه، بل نشأ من روحها، وراح يرويها بدمه، فباتت من روحه،
ويختم بأنه لا خير في حياة بلا وطن، حيث يقول: [المتقارب]

داري ودار أبي وجدّي أعزُّ ما في الأرضِ عندي
بدمي روّيت ترابها ورواه قبل أبي وجدّي
أنا في ثراها قد نبئتُ لخيرِ جدِّ من معدِّ
أنا في ربّاهها قد ربوتُ وفي ذراها اشتدّ زندي
من روحها أنا، وهي من روحي، وصنع يدي وجهدي
لا خيرَ في عيشِ بلا وطنٍ تعزُّ به وتفدي^(١)

ي - ويدرك الشاعر حتّى أبو حنا ما يبيته الأعداء لمن بقي في فلسطين
من شعبها العربي الفلسطيني من الإجماع والتشريد، ويفتد أدعاهم ونواياهم
الخبیثة الظالمة بقوله:

يقول الدعيون والغاصبون
بأننا أقلية سوف تُجلى
والأستفنى اضطهاداً وذلاً
ولكن... أقلية نحن؟ كلا، ومليون كلا...
فنحن هنا الأكثرية
لنا وطنٌ راسفٌ في القيود
وشعبٌ تشردَ عبر الحدود
سنرجعه رغم أنف اللظى والحديد
ونجعله جنةً من جديد^(٢).

(١) في غمرة النكبة، ص ٢٤ و ٢٥.

(٢) نداء الجراح، ص ٦٩. منشورات مكتبة عمان، ط ١ (١٩٦٩م).

ويؤكد الشاعرُ زيفَ ادعاء اليهود بأنَّ العرب في فلسطين أقلية، ويبين أنهم «الأكثرية» وأن السرَّ يكمن في احتلال وطنهم وتشريد شعبهم، ثم يؤكد عزمهم على استرجاعه - رغم قوة العدو العسكرية - وتحويله إلى جنة تنفع الناس.

إنَّ هذا التصوير حسيّ للواقع المرير، وهو تصوير جميل لعزم الأحرار من العرب على الجهاد، وتحرير الأرض والإنسان المظلوم فيها. . .

رابعاً: الأحزاب والزعماء والانقسامات

كانت أكثرية الشعب الفلسطيني في النصف الأول من القرن العشرين تتألف من الفلاحين والعُمَّال وصغار الموظفين، بينما يتألف القسم الآخر من الإقطاعيين والوجهاء والأثرياء، وقد احتكر هؤلاء الزعامة السياسيّة في فلسطين طيلة فترة الانتداب، وكانوا يميلون إلى مهادنة الاستعمار والصهيونية، محافظة على مصالحهم، ولهذا نشأت خلافات بينهم وبين الزعماء، ثم بينهم وجماهير الشعب من جهة ثانية، وانعكس ذلك على الجبهة الوطنية الداخلية، فأضعفها أمام أطماع العدو وضراوته، ويعتبر ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى الهزائم السياسية والعسكرية، التي حلّت بالبلاد، وساقتها إلى نكبتها الأليمة.

أ - وأشار عبد الرحيم محمود إلى ذلك في قصيدة له بعنوان «عيد الجامعة العربية» قائلاً: [الكامل]

وتخاصم القوَّاد بين مُشرِّقٍ ومغرَّبٍ وتقطَّعت أرحام
والخطب فرَّقنا قبائل جمَّةً والخطب عند خصومنا لمَّام
مرَّت بنا الأيام بين تعلُّلٍ وبغْدٍ فضاعت بالرؤى الأحلام^(١)

(١) ديوان عبد الرحيم محمود، ص ١٤٥ - ١٤٧.

وتبدو هنا المفارقة بين حال الأعداء، وحالنا، إذ إن الخطب يجمعهم، مع أنهم على باطل، بينما الخطب يفرقنا رغم أن قضيتنا عادلة، ولهذا فإن انتظارنا للغد لم يسفر إلا عن ضياع الأحلام...

ب - ويمثل إبراهيم طوقان اتجاه الجماهير التي نهضت برسالتها، فدعت إلى توحيد الصف الوطني؛ ونبذ الشقاق، وتأليف القلوب على العمل، والبذل لإنقاذ الوطن، وترك الزعامة لمن يستحقها بالتضحيات، فقال في قصيدة «وردٌ يغيضُ وهجرة تتدفق» بمناسبة رثاء موسى كاظم الحسيني: [الكامل]

وطني أخاف عليك قوماً أصبحوا	يتساءلون، من الزعيم الأليق؟!!
لا تفتحوا باب الشقاق فإنه	باب على سود العواقب مغلق
والله لا يرجى الخلاص وأمركم	فوضى، وشملُ العاملين ممزق
أين الصفوف تنسقت فكانما	هي حائط دون الهوان وخذق
أين القلوب تألفت فتدافعت	تغشى اللهب وكل قلب فيلق
أين الأكف تصافحت وتساجلت	تبني وتصنع للخلاص وتنفق
أما الزعامة فالحوادثُ أمها	تُعطي على قدر الفداء وترزق ^(١)

ثم يتحدث عن كثرة الأحزاب وضعفها وجبنها وتضليلها الناس بالأقوال: [الخفيف]

كلّ يوم حزبٌ وحُلْمٌ فحدّث	عن ضعيفٍ سلاحه أحلامه
مُغرّمٌ بالبلاد صبّ ولكن	بسوى القول لا يفيضُ غرامه
بطلٌ إن علا المنابر، كراز	سريعٌ عند اللقاء انهزامه ^(٢)

وحينما تفسى التطاحن الحزبي في فلسطين عامة، والقدس خاصة،

(١) ديوان إبراهيم، ص ١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢١.

لأنها عاصمة البلاد، وفيها طائفة من ذوي الشراء والجاه، انبرى إبراهيم لمعالجة هذه الظاهرة في مناسبات عديدة، وقال في قصيدة «القدس»:

[البسيط]

دار الزعامة والأحزاب كان لنا
هل تذكيرين وقد جاءتك ناشئة
تودّ لو وجدت يوماً أختاً ثقةً
لديك يوسّعها برّاً ويحميها
ما كان كفواً عفيف النفس كإفلهما
ولا أباتاً حمي الأنف راعيها
ولا أفادت سوى الأحقاد تُضرمها
فوق البلاد (زعامات) وتذكيها
ولم تبال بما تلقي بها حطباً
قضية نبذوها بعدما قُتلت
ما ضرّ لو فتحوا قبراً يواريهما^(١).

وتبلغ به السخرية المريرة - من هؤلاء الزعماء - ذروتها حتى يصفهم بصفات الكمال التي يتمناها، بينما هم على النقيض منها تماماً، كاشفاً حجاب السخرية في البيت الأخير حين يطلب من الزعماء أن يتنحوا عن الزعامة، كي لا يضيّعوا بقية البلاد: [الخفيف]

أنتم (المخلصون) للوطنية
أنتم (العاملون) من غير قول!!
بارك الله في الزنرد القوية!!
(بيان) منكم يعادل جيشاً
بمعدّات زحفه الحربية
(اجتماع) منكم يرّد علينا
غابر المجد من فتوح أمية
في يدينا بقية من بلاد
فاستريحوا كي لا تطير البقية^(٢)

ولا يفوت إبراهيم أن يدمغ هؤلاء الزعماء - بعد توجيه النداءات المتوالية وعدم استجابتهم لها - بالبلادة وموت الإحساس وذّل النفس، والانصراف عن مكر العدو إلى التهافت على موائده ووعوده، فيقول في

(١) ديوان إبراهيم، ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٣.

قصيدة له رثى فيها أبا المكارم (عبد المحسن الكاظمي): [البيسط]

تمكّن الذلّ من قومي فلا عجب ألاّ يبالوا بتقريع وتأنيب
ما أشرف العذر لو أنّ الوغى نثرت أشلاءهم بين مطعونٍ ومضروب
لكن دهتهم أساليب العداة وهم ساهون لاهون عن تلك الأساليب
ويقنعون بمبذولٍ يلوحه مستعمروهم بتبعيدٍ وتقريب^(١)

ويبدي حسرته على أهل البلاد، ويأسف لما حلّ بهم، حيث تساوى
الحاكم الظالم مع اللصّ والجاسوس والسمسار، قائلاً في قصيدة «يا
حسرتا»: [الكامل]

ياحسرتا، ماذا دهى أهل الحمى فالعيشُ ذُلٌّ، والمصير بواؤ
الظالمُ الباغي يسوس أمورهم واللصّ والجاسوسُ والسمسارُ
يا مَنْ تعلّل بالسياسة ظنّها لَطُفت، ولأنّ عَصِيها الجبّارُ
ما لطفها؟ ما اللينُ ذاك؟ وكلّهم مستعمرون وكلّهُ استعمارُ^(٢)

ج - ونبه محيي الدين الحاج عيسى إلى هذه الحالة وخطرها الداهم
وسوء العاقبة بعد أن كثر الطالبون للمناصب مدعين الفهم في «السياسة»،
وقال: [مجزوء الرمل]

فعلامَ الضغن يا قو مُ وما تجدي الشراسه
أوما تدرون أن الـ كملّ في سوق النخاسه^(٣)

د - ونهض الشاعر الشاب مطلق عبد الخالق متلهفاً متألماً على هذا
الوطن الذي اختلفت فيه الزعماء، وتناحرت الأحزاب، ففتقرت الكلمة،
واضحلت القيم، وتدنت الأخلاق، وكزس الزعماء جهودهم لمصالحهم

(١) المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٣) من فلسطين وإليها، ص ٣٠، حلب، ١٩٧٤م.

ونزواتهم، وانغمسوا بملذاتهم، وتركوا شعبهم يغرق في لويلات والدماء،
فقال في قصيدة له بعنوان «يوم الهوان»: [الكامل]

لهفي على وطنٍ تنازع أهلهُ عبثُ الرؤوسِ وضيعةُ الأذنانِ
الضغنُ والشحناءُ بعضُ خطوبه ومصارعُ الأخلاقِ والآدابِ
وتبليبلُ الرأيِ الشتيتِ وعزَّةُ مَوءودَةٌ وتناحرُ الأحزابِ
وتواكلُ في الحادثاتِ وذلَّةُ وفتورُ أشياخِ ونومُ شبابِ
وتزلُّفُ أوما رأيتِ سراتنا هاماتُهم تمشي على الأعتابِ
الشعبُ في دمه يخوضُ وخوضهم يا ويحهم في الشاي والأكوابِ^(١)

ويسخر مطلق عبد الخالق من هؤلاء الزعماء وتعاليمهم على الشعب،
وانصرفهم عن آلامه ومظالمه، ممّا دفعه إلى ذمهم واحتقارهم والإعراض
عنهم، بقوله في قصيدة بعنوان «إلى الزعماء»: [البيسط]

قَدَّمْتُم قَبْلَ أَيَّامِ مَذْكَرَةٍ إلى الحُكُومَةِ يا قَوْمَ الزَعَامَاتِ
يا لَيْتَ أَنَا عَرَفْنَا مَا يَطْرُزُهَا مِنَ الْمَعَانِي وَمَنْ سَامِيَ الْعِبَارَاتِ
رَوَيْدِكُمْ لَا تَلُومُوا إِنَّا بَشَرٌ مِنَ التُّرَابِ وَأَنْتُمْ فِي السَّمَاوَاتِ
مَذْكَرَاتُ كَثَارُ الْعَدُوِّ قَدْ سَبَقَتْ هَذِي فَرَاخَتْ شَطَايِدَ كَالْقَصَاصَاتِ
مَاذَا جَنَيْتُمْ سِوَى إِعْرَاضِ أُمَّتِكُمْ عَنْكُمْ وَغَيْرِ شِمَاتَاتِ الْحُكُومَاتِ^(٢)

هـ - ويخاطب حسن البحيري الشعب كاشفاً القناع عن زيف الزعامة
وحقيقتها، وهي التي أخفقت في تسيير دفة البلاد وإيصالها إلى شاطئ
الأمان، ويقول في قصيدة «الصنم والمعبود»: [الخفيف]

فعبدتم من الزعامة جهلاً صنماً مثبتاً على الألواحِ
حدّثوني عن الزعامة، ماذا أدركت بحلّبة الإصلاحِ

(١) ديوان الرحيل، ص ٥٠. حيفا ١٩٣٨م.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٠.

غير جارٍ علماً بعسفِ مقالٍ ضلّته عن مسلك الإفصاح^(١)

ثم يستنفر شعبه، ويحرضه ويستثير الحمية التي عرفها فيه، وينبئه إلى ما يحيط به من المكائد، وما حلّ به من الكوارث، ويهيب به أن يبقى على منهجه الأصيل في إشعال الثورات، وتقديم التضحيات، وسحق الزعامات التي كانت تتاجر بانتصاراته وتجهضها، ثم يطلب منه أن يثور ويحطم القيود حتى لا تدهمه الأيام ويجتثه السفاح، ويقول في القصيدة السابقة الذكر:

[الخفيف]

كيف ترضى الحياة عبداً ذليلاً مستكيناً ولم تُثر للكفاح؟
كيف تعنو هوناً لسوطٍ اقتيادٍ مستبداً ولم تُلد بالجماح؟
أنت في زورق الزعامة مجدافٌ تلهت به يد الملاح
أنت في معقل القيادة شلّوٌ جعلته قربانها للطماح
أنت في لجة الأنام قطيعٌ ساقه من رعاه سوق الأضاحي
فانفض النير عن كواهلٍ ذلٌ وأرم بالقيد وجه باغ وقاح
وأمص بعد الخمول في سبل العيش عزيز الجناب طلق الجناح^(٢)

و - وهذا راشد حسين يشير إلى الخلافات التي تحدث عادة بشأن

زعامة القرى في الأرض المحتلة بقوله: [الكامل]

يقاتلون على زعامة قريةٍ فكانهم في حكمها وزراء
وإذا مهمات الرياسة أدبرت رفعوا الرؤوس فكانهم رؤساء
يا طالباً عرش الزعامة هات لي حقي وخذ ما يأخذ الزعماء
خل الرياسة للشجاع يسوسها أمّا الجبان فشغله الإصغاء^(٣)

(١) ديوان حيفا في سواد العيون، ص ٥١ و ٥٢. دمشق، ط ١ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).

(٢) ديوان حيفا في سواد العيون، ص ٥٧ و ٥٨.

(٣) ديوان راشد حسين، مجموعة قصائد فلسطينية، ص ٨ و ٩.

خامساً: الأحداث والحروب والنكبات

منذ دخل الإنكليز فلسطين عام ١٩١٨، وأعطى بلفور الوعد المشؤوم لليهود بإقامة وطن لهم في فلسطين العربية، رفض العرب إقرار الانتداب...، فضلاً عن رفضهم لخطط الصهيونية وأطماعها في فلسطين، وطالبوا بجلاء الإنكليز، والاستقلال. ، لكن المؤامرة استمرت..

ومن هنا أخذت تتوالى على هذه البلاد المظاهرات والحوادث والثورات، وأهمها ثورة البراق التي نشبت في ٢٣/٩/١٩٢٩م، وثورة الشيخ عز الدين القسام عام ١٩٣٥، وثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩، ثم حرب عام ١٩٤٨، التي نتج عنها احتلال اليهود لمعظم الأراضي الفلسطينية، وتشريد غالبية سكانها إلى الأراضي العربية المجاورة.

وتركت المأساة آثاراً نفسية واجتماعية قاسية في صفوف الفلسطينيين، سواء المشردين منهم، أو الراحين في الأرض المحتلة تحت ظل الحكم الصهيوني الغاشم، فعالجوا جراحهم وشؤونهم، وأخذوا يتطلعون إلى العودة بكل وسيلة ممكنة، وكانوا يستبشرون بالمعارك خيراً، لأنهم يرونها تقربهم من العودة، ولهذا شاركوا في الاستعدادات والأعمال العسكرية التي جرت منذ النكبة الأولى وحتى نكبة عام ١٩٦٧م.

كانت الصدمة عميقة عندما حدثت هذه النكبة... إذ بدّل أن يتحقق حلم العرب بتحرير فلسطين احتلّ اليهود بقية أجزائها، وأصبحت فلسطين بكاملها تحت سيطرتهم، فضلاً عن احتلالهم سيناء والجولان.

وبالرغم من الكارثة فإنّ عزيمة أبطال الشعب الفلسطيني لم تهن، وإيمانهم بحقهم لم يضعف، وإرادتهم لم تتبدل، وهم يصرون على الكفاح المسلّح والتحرير؛ وما ثورة أطفال الحجارة إلا رمز لهذا الكفاح...

ورغم هذا كله، فإنَّ الجهود المبذولة لتحرير فلسطين ما زالت محدودة بالنسبة إلى قدرات العرب وطاقاتهم، وهي تقتصر - حتى الآن - على نشوء المنظمات الفدائية الفلسطينية، وحملها راية الكفاح المسلَّح لتحرير فلسطين، والقيام بالعمليات العسكرية المختلفة.

لقد واكب شعراء فلسطين هذه الأحداث، وكانوا ينبّهون إليها قبل وقوعها، مناشدين عرب فلسطين وغيرهم راب الصدع، وإعداد العدة لحماية فلسطين وتحريرها، وشارك عدد منهم في قتال العدو، واستشهد بعضهم في ساحات النضال والشرف، وجعلوا - جميعاً - للكلمة دوراً مؤثراً إلى جانب البندقية في مراحل النضال كافة.

أ - وغداة حادث حائط «البراق»^(١)، الذي نشأ عندما تحدّى اليهود المسلمين، وأتوا إلى ما يسمونه «حائط المبكى» ليثبتوا ملكيتهم له، زاعمين أنه هيكل سليمان، واصطدموا بالمسلمين واشتبكوا معهم، وسقط عدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين، وسجن عدد آخر، نفذ حكم الإعدام شقاً في ثلاثة من الأبطال يوم الثلاثاء في ١٧ حزيران ١٩٣٠، وهم فؤاد حجازي، عطا الزير، ومحمد جمجوم، ومما يُذكر أن هؤلاء الأبطال الشجعان أخذوا يتزاحمون إلى جبل المشنقة فداءً لحرية وطنهم وشعبهم.

وأطلق إبراهيم طوقان نشيد «البراق» في تلك المناسبة، مؤكداً ملكية المسلمين له، وحفاظهم عليه، وداعياً إلى حمايته والتضحية في سبيله، حيث قال: [مجزوء السريع]

لنا البراق والحرم لنا الجِمْى، لنا العَلَم
أرواحنا، أموالنا فِدى البراق والحرم
نحن الشباب المسلم والله لا نَسْأَلُ

(١) يشكل حائط البراق القسم الغربي من الحرم الشريف.

نموت أو نكرم فدى البراق والحرم
لا تسمعوا كذب الوعود أعداؤنا خانوا العهود
دوسوا على روس اليهود فدى البراق والحرم
شبابنا سدوا الصفوف قوموا عليهم بالألوف
الله ما أحلى الحتوف فدى البراق والحرم^(١)

ويروي إبراهيم طوقان حكاية إعدام الأبطال الثلاثة، بحيث يُنطق الساعة

الأولى فتقول عن البطل الأول (فؤاد حجازي): [المتقارب]

أنا ساعة النفس الأبية الفضل لي بالأسبقية
أنا بكر ساعات ثلاث كلها رمز الحمية
مانال^(٢) مرتبة الخلو د بغير تضحية رضية
عاشت نفوس في سبي بل بلادها ذهبت ضحية

وتتحدث الساعة الثانية عن البطل الثاني (عطا الزير) فتقول:

[المتقارب]

أنا ساعة الرجل العتيد أنا ساعة البأس الشديد
أنا ساعة الموت المشرف كل ذي فعلٍ مجيد
بطلي يحطم قيده رمزاً لتحطيم القيود
قسماً بروح (محمد): تلقى الردى حلو الورود
مانال من خدم البلا د أجل من أجر الشهيد

ثم تتحدث الساعة الثالثة عن البطل الثالث (محمد جمجوم) فتقول:

[المتقارب]

أنا ساعة الرجل الصبور أنا ساعة القلب الكبير

(١) ديوان إبراهيم، ص ١٩٧.

(٢) ضمير الفاعل هنا عائد إلى فؤاد.

رمز الثبات إلى النهاية في الخطير من الأمور
بطلبي أشد على لقاء الموت من صمّ الصخور
جسدلان يرتقب الردى فاعجب لموت في سرور
ما أنقذ الوطن المفدى غير صبار جسور
وأخيراً يأتي دور الخاتمة، وجاء فيها: [الرجز]

أجسادهم في تربة الأوطان أرواحهم في جنة الرضوان
وهناك لا شكوى من الطغيان وهناك فيض العفو والغفران^(١)

ب - اتسعت الدعوة إلى الجهاد حتى شملت المساجد والأندية والبيوت، فتولى الشيخ عز الدين القسام^(٢) تشكيل منظمة سرية من مريديه، الذين نذروا أنفسهم للجهاد ضد الإنكليز والصهيونية، وبدأت أعمالها في بيسان، ثم ما لبثت أن وقعت معركة في أحراش يعبد - القريبة من قرية جنين - بينها والقوات البريطانية في ٢٠/١١/١٩٣٥ انتهت باستشهاد الشيخ القسام وأربعة من رفاقه^(٣).

توالت الأحداث بعدئذ، ونشبت الثورة الكبرى التي امتدت ما بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ إثر ازدياد عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وتشجيع بريطانيا لانتقال الأراضي إليهم وتدريبهم وتسليحهم، وواكب هذه الثورة إضراب شامل دام ستة أشهر.

(١) ديوان إبراهيم، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) الشيخ القسام من مواليد بلدة جبلة في سورية عام ١٨٧١م، وهو من خريجي الأزهر الشريف، اشترك في الثورة السورية ضد الفرنسيين عام ١٩٢١، ولما فشلت هرب إلى مدينة حيفا، وشغل هناك عدة وظائف أهمها إمامة جامع الاستقلال.

(٣) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٥٠ - ٢٥٤. وأكرم زعيتير: الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ - ١٩٣٩، ص ٢٧ - ٣٥.

نويهض - عجاج: رجال من بلادي ما بين بداية القرن حتى العام ١٩٤٨، ص ١٠٩ - ١١٦. منشورات فلسطين المحتلة، بيروت، ط ١ (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

ويعد أن وجه ملوك العرب ورؤسائهم نداءً إلى عرب فلسطين أوقفوا هذه الثورة وأنهوا الإضراب؛ وعندما وفدت إلى فلسطين لجنة ملكية وأوصت بتقسيم فلسطين رفض العرب هذا المشروع، ونشبت حوادث عديدة، داهمت القوات البريطانية على أثر إحداها منزل الشيخ فرحان السعدي في قرية المزار (قضاء جنين) بحجة أنه من إخوان الشيخ عز الدين القسام، ويقود مجموعة ثائرة، فوجدت لديه بندقية، فحكمت عليه بالإعدام شتقاً وهو صائم - وعمره سبعون سنة - بتاريخ ٢٨ / ١ / ١٩٣٧ = ١٤ رمضان ١٣٥٦ هـ، فعمّ الأسى والنقمة أرجاء البلاد، وأقسم المجاهدون على الثأر له^(١)، ونظم الشعراء قصائد عديدة في هذه الأحداث.

١- ويخلد أبو سلمى ذكرى استشهاد الشيخين المناضلين القسام وفرحان السعدي في قصيدته المعروفة بـ «لهب القصيد» من خلال هذه الأبيات: [المقارب]

قوموا أسمعوا من كل ناحـة ية يصيخ دم الشهيد
 قوموا أنصروا القسام يُشر ق نورهُ فوق الصُرود
 يُوحى إلى الدنيا ومن فيـها بأسرار الخُلود
 قوموا أنظروا فرحانَ فوق جبينه أثرُ السُجود
 يمشي إلى حبل الشّهادة صائماً مَشْيَ الأسود
 سَبْعُونَ عاماً في سبيلِ الله والحقّ التّليد
 خَجَلُ الشّبابِ مِنَ المشيبِ بِلِ السُّنُونُ من العُقود^(٢).

٢ - وقد عبّر عبد الرحيم محمود عن الإجلال الذي حظي به القسام من شعبه، وازداد التعاطف معه حتى أصبح نبزاً للثورة: [الكامل]

(١) عجاج نويهض: رجال من بلادي، ص ١١٦ وما بعدها. وأكرم زعيتر: الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩٣٥ - ١٩٣٩)، ص ٣٣٨ - ٣٤٢.

(٢) ديوان أبي سلمى، ص ٢٣ و ٢٤.

هذي طريقك للحياة فلا تجذد قد سارها من قبلك القسام^(١)
٣ - وأكد برهان الدين العبوشي سلامة منهج القسام، ونشره للخصال
الحميدة في أتباعه، قائلاً: [الوافر]

دعا القسام إخواني لنور وأزشدنا إلى غرر الخصال^(٢)
٤ - ونوه برهان الدين بالإضراب الذي امتد ستة أشهر برغم الخسائر
المالية التي تحملها الناس: [الكامل]

مرّت على الإضراب ستّة أشهر عَجِبْتُ لها الأيامُ رغمَ خسائر^(٣)
ويعلن أن الثورة كانت لحماية الأوطان ودفع الظلم قائلاً: [الوافر]
وئزنا ثورة الجبارِ نخمي حمى الأوطان من كيد الأعداي
فآثرنا الجبالَ مقامَ عز نُثِيرُ النارَ فيها بالزنادِ
إذا ظلمَ الكرامُ فليس يشفي جراحهم سوى سيفُ الجلادِ
فلسطينُ لنا نحيمي جمّاهَا ونفديها بأرواح العباد^(٤)
ويصرّح بأن الشعب هو صاحب القضية الوطنية، وغيره لا يحلها،
ويدعو الشعب إلى أخذ قضيته بيده حتى لا تلعب بها الأهواء، ويقول:
[الكامل]

يا شعبُ غيرك لا يحلُ قضية لعبت بها الأهواءُ ستّة أشهر
يا شعبُ دونك والسلاح فلا أرى منجاةً عزّ دونه في الأعصر^(٥)

(١) ديوان عبد الرحيم، ص ٤٧.

(٢) وطن الشهيد، ص ٥٥. المطبعة الاقتصادية، القدس، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

(٣) المصدر السابق، ص ٦١.

(٤) ديوان المشرد، ص ٤٢. دمشق، ط ٢ (١٩٦٣م).

(٥) النيازك، ص ٤٢ - ٤٣، بغداد ١٩٦١م.

٥ - ويسأل محيي الدين الحاج عيسى الناصر مشفقاً، وذلك في قصيدة له بعنوان «في ثورة ١٩٣٦»: [الكامل]

أثراه مِنْ جَزَعٍ وَمِنْ إِشْفَاقٍ قَلِقَ الْمُضَاجِعَ دَائِمَ الإِطْرَاقِ؟
أَمْ مِنْ جِرَاحٍ فِي حَسَّاهُ خَفِيَّةٍ قَدْ هَجَنَ مِنْهُ كَوَامِنَ الأَشْوَاقِ
هُوَ عَلَيكَ فَمَا العَنَاءُ بِدَائِمٍ أبدأً وَلَا لَيْلُ الهَمومِ بِبَاقِ
ثم يصف دبابات وطائرات القوات البريطانية التي كان الثوار يتصدون لها ببسالة، ويقول: [الكامل]

يا أيها البطلُ الكَريمُ تحيةٌ تُهَدَى إِلَيْكَ بِناضِرِ الأورَاقِ
في ذِمَّةِ التَّاريخِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ لَمْ تَشْكُ مِنْ نَصَبٍ وَلَا إِزْهَاقِ
مُتَزَوِّدًا فِي طُولِ يَوْمِكَ كِيسَرَةً مَا خِفَّتْ مِنْ جُوعٍ وَلَا إِفْلاقِ
* * *

والزاحفاتُ فَمَا العِثَاقُ يَنْلَنُهَا إن شَمَّرْتَ يَوْمَ الوعى عن سَاقِ
والطائراتُ حوائِمٌ يُلقينَ من كَبِدِ السَّماءِ صواعقَ الإِحْراقِ
في جوفهنَّ الموتُ يَكْمُنُ جَانِماً فَإِذَا أَنْفَجَرْنَ أَطْلُ بِالْأَعْنَاقِ (١)
٦ - ويلهب حسن البحيري لمشاعر، ويهزّ العواطف، ويحشد الأمانى، وهو يرى شباب فلسطين يلبون نداء الوطن سنة ١٩٣٦ بالدماء والأرواح: [الطويل]

إذا دَعَتِ الأوطانُ يوماً لبغيةٍ بأزواجنا الظمأى أَجَبْنَا نداءها
نذودُ عن المجدِ التليدِ بصارمِ شمسِ الضُّحى مِنْهُ استعارت ضياءها
وما المجدُ إلا نَشِيدٌ وَنَبْتَنِي وَنحنُ المعالي قَدْ جَلَوْنَا رِداءها
وفخرُ الثرى أَنَّا وَطِننا رِفْعَةً وَفخرُ الثرى أَنَّ عَلَوْنَا سماءها
ومنا الذي قَدْ رَوَّعَ الدهرَ بأسُهُ وَعَلَّمَ أحداثَ الزمانِ مَضاءها

(١) من فلسطين وإليها، ص ٣٦ و ٣٧.

يدافعُ عَنْ حق البلاد ولا يَني ولو ناصبَ الدهرُ البلادَ عِداها
تُسالِمُنا الأيامُ خشيَةً بأَسِنَا فتلقي لنا أيدي الليالي ولأَها
ويُدني لنا الدهرُ المنى وهو صاغِرٌ وأنفسنا منها تنال اشتهاها^(١)

ويعتبر البحيري في هذا الشعر المتدفق حماسة وعذوبة عن المرحلة الصعبة التي كان يواجه خلالها العدو الإنكليزي، والغازي الصهيوني بالكفاح المسلح.

وفي العام ذاته يصف البحيري، في قصيدة «معاقلنا» شعبه العنيد الصامد المقاتل: [مجزوء الكامل]

إنَّا عَدونا صارمين لا نستكينُ ولا نلين
السجنُ والإبعادُ والتنكيلُ بل صابُ المنون
خيرٌ لنا من أن نرى فوق الثرى مُستضعفين
أو أن نعيشَ أدلَّةً في أرضنا مستعبدين
هذي معاقلنا الأبيّة لا تذُلُّ ولا تلين
هي موئلُ المجدِ التليدِ ومهبطُ الرّوحِ الأمين
ثُرنا لها كيما نعيدُ الحقَّ وضاحَ الجبين
ثُرنا ونبقى ما أغترانا الضيمُ فيها ثائرين
حتى يلينَ لنا العنيدُ وتُحرزَ النصرَ المُبين^(٢)

ج - وعندما بدأت حرب عام ١٩٤٨، كان اليهود قد أعدوا العدة: من تدريب، إلى تأمين أسلحة كثيرة ومتنوعة. .، إلى الحصول على مساعدات كثيرة من حلفائهم - مادية وعسكرية - فضلاً عن مساهمة القوات البريطانية في فلسطين في التخطيط وتقديم التسهيلات والمساعدات. وبدأت الاشتباكات في مواقع مختلفة من فلسطين، ثم ما لبثت أن تطورت إلى معارك كبيرة، وفي

(١) ابتسام الضحى، ص ٤٨ - ٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٨.

مقدمتها معارك القسطل ودير ياسين والجليل. أما بلدة القسطل فتقع على مقربة من القدس، غرباً، وقد دار فيها قتال مرير بين العرب واليهود، وكانت الحرب فيها سجالاً، إذ احتلها اليهود في ٣/٤ / ١٩٤٨، ثم استعادها العرب بقيادة قائد الجهاد المقدس البطل عبد القادر الحسيني بعد قتال مرير تكبد فيه اليهود نحو (٣٥٠) ثلاثمائة وخمسين قتيلاً، واستشهد القائد عبد القادر يومئذ، ثم شنَّ اليهود هجوماً عليها صباح اليوم التالي فاحتلوها، ودمروها، وقتلوا الكثيرين من أهلها وشرّدوا الباقين^(١).

والتهبت مشاعر عدد من الشعراء بهذه المناسبة فأطلقوا القصائد النارية، وصوّرُوا الحقيقة المفجعة في الصراع.

١- ويصّب الشاعر الوطني محمد العدناني جام غضبه ونقمة على اليهود، ويحرّض على قتالهم والثأر منهم، بعد الإشادة بالبطل الشهيد عبد القادر الحسيني، فيقول في قصيدة «القائد الشهيد»: [الخفيف]

زغردي اليوم يا جنان الخلود واهتفي بالنشيد تلو النشيد
جاء سبط الرسول طلق الأساريه رمحاطاً بهالة التمجيد
وعليه من الفخارات رداءً نسجته يدُ الجهادِ الفريد
أرخص الروح ذائداً عن حماه بصيالٍ أطار لبَّ اليهود

يا نُفَايات، يا حثال البرايا يا جرائيم أوقعوا بالعديد
سنريكُم في الحرب ما يُهْلِكُ النَّسْلَ جميعاً والحرثُ دون ركود
وسنغزو كالجنِّ ما قد أشدّتُم من قلاع فاستعصموا بالصمود
وغداً سوفَ يحكُمُ الطوق جيشُ يعرُبِيّ يفوق رملَ البيد

(١) عارف العارف: النكبة، ج ١، ص ١٥٦ - ١٦٥. وصالح أبو يصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، ص ٣٤٧ وما يليها.

وستفنون والقذائف تشدو بلحونٍ كالبلبل الغريد
 فارقصوا رقصة الوداع وكونوا للجحيم الحمراءً شرّاً وقيد
 إن للجلّم في الحروب حدوداً لن ترّوه يوماً وراء الحدود
 فأطيقوا لظى الكفاح أطيقوا «لا يُفْلُ الحديدَ غيرُ الحديد»

يا حُمَاةَ الجِمَى، ورمزَ الأمانى وأسود الوغى، وغيظ الحسود
 أبْنُوا القائد المجاهد بالنار ولا تكتفوا بنار قصيدي
 ودعوا القول للقذائف تُلقني حُمَمَ الرّعب والرّدى العريدي
 وأريحوا الشعوبَ من شرِّ طاعون البرايا أعداءَ هذا الوجود^(١)

إن إرادة الثأر والتحرير متوثبة في هذه القصيدة التي تنبض بالصدق،
 وتتوهج بالحرارة والألم والإصرار على متابعة الكفاح والانتقام.

٢ - ويعدّ الشاعر هارون هاشم رشيد بمقدمة المناضلين الناقمين على
 العدو وجرائمه، والداعين إلى الثأر، والممجدين للشهداء وسائر المجاهدين.
 وفي سنة ١٩٥٥م ألقى قصيدة «غابة القسطل» في مهرجان شعبي بقطاع غزة
 تيمناً بالعودة، قال فيها: [المتقارب]

سنزرعها في الغدِ المقبلِ سنزرعها في رُبى القسطلِ
 سنزرعها قسماً بالدماءِ دمَاءِ الشبابِ التي تغتلي
 سنزرعها قسماً باليتامى وبالنازحين وبالْعُزْلِ

فلسطيننا أبشري أبشري فنحن على عهدك الأولِ
 أجل نحن كئنا جبين الفخار وكئنا على هامه نجتلي

(١) ديوان اللهب، ص ٨٢ - ٨٨.

هُمُو قَيْدُوكَ، هُمُو مَزْقُوكَ هُمُو قَدْ أَصَابُوكَ فِي الْمَقْتَلِ
وظنّوا بأنك لن ترجعي إلينا، وأنتك لن تقبلي
وأنا على زعمهم ميّتون وراء ظلام الأسي المُسندل
وأنا سننسى ديار الجدود ونُشغَل بالحادث المعضِل

فلسطين هيهات إنّا لها لمعركة الثأر فاستبسلي
سنأتيك رغم الأسي والدموع سنأتيك بالأمل الأجملي
فنحن إليك الغداة إليك سندفق كالعارض المسبلي
نغطي الذرا ونغطي السهول بزحف الفيالق بالجحفلي
غداً سنعودُ إلى مجدنا إلى الحقل للكرم للمنزلي
سنزرع أشجارنا هناك سنزرعها في الغد المقبل^(١)

د - ونشير الآن إلى مذبحه بلدة دير ياسين - وهي من قرى القدس - التي حدثت يوم الجمعة في ٩/٤/١٩٤٨، عندما احتل اليهود هذه البلدة العربية بعد معركة كبيرة قتل فيها ما لا يقل عن مائة يهودي، وعندما دخل اليهود القرية بقيادة المجرم مناحيم بيغن وارتكبوا مذبحه فيها، قتلوا نحو (٢٥٠) مائتي وخمسين شخصاً من العرب، أكثرهم من الشيوخ والنساء والأطفال، وبين النساء خمس وعشرون امرأة حاملاً، ومثلوا بالعجزة والجثث، ثم دمروا القرية، وشردوا أهلها، متعمدين أن يدبّ الرعب والهلع واليأس في قلوب السكان العرب^(٢)...

يومئذٍ انطلقت إدانات كثيرة - من كل حذب وصبوب - لهذه المجزرة الرهيبة، وستبقى وصمة عار في جبين الصهيونية المجرمة، التي تبرر هذا

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٤١ و ١٤٢.

(٢) عارف العارف: النكبة، ج١، ص ١٦٩ - ١٧٦. ومحمد محمود الصياد وآخرون: المجتمع العربي والقضية الفلسطينية، ص ٣٦٣ وما بعدها. وصبري جريس: العرب في إسرائيل، ص ٢٣٧.

العمل الشنيع، من أجل اغتصاب الأرض، وكان شعراء فلسطين السباقين إلى تصوير المذبحة واستنكارها، والدعوة إلى الثأر والانتقام من هؤلاء السفاحين، وتطهير فلسطين من رجسهم.

١ - ويعدّد برهان الدين العبوشي المعارك المتوالية بين العرب واليهود، ويشير إلى مذابح دير ياسين، وبطولات الجماهير العربية وتضحياتهم بقوله: [الكامل]

هذه المعارك عند «سلمة»^(١) أضرت
وشباب يافا قارعوا العادي فما
و«بدير ياسين» مذابحٌ قد جرى
وأسود حيفا ثابتون توابوا
والشعبُ قد شابت نواصيه أسى
بذل النفيسة والنفيس ليشتري
كم صارع الأيام وهو مجردٌ
وشبابها وثبوا لغسل العارِ
لانت قناتهم إلى الفجارِ
فيها دمُ الشهداء كالأنهارِ
يتهافتون لعزّة وفخارِ
يبغي السلاح لكبح وحشِ ضارِ
شرف الحياة وعزّة الأبرارِ
من سيفه وعليه تاجُ الغارِ^(٢)

٢ - ويذكر كامل الدجاني الدار التي كانت موطن الأجداد، ويذكر أيضاً غدر اليهود بأهل دير ياسين، وفتكهم بالعجزة الآمنين في بيوتهم، ويقول: [الرمّل]

أذكرو الدار التي كانت لكم
وحياة كرمتُ في ظلّها
خلف الأعداء في ساحاتها
أذكرو ما فعل الغدرُ بكم
وضحايا «دير ياسين» وما
موطن الأجداد منذ القدم
وحياة بعدها لم تكرم
وغدوا من أرضكم في الحرّم
ولوعُ الكلب في حرّ الدم
فعلوا في الآمنين النوم

(١) سلمة قرية تقع إلى الشرق من مدينة يافا، وعلى بعد خمسة كيلومترات منها.

(٢) شبح الأندلس، مسرحية شعرية عن نكبة فلسطين ومعركة جنين، ص ١٩. دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٩م.

أذكروا من قتلوا واضطهدوا واستذلُّوا من بقايا الشمم^(١)
هـ - كثرت المعارك وحمي وطيسها مع اقتراب موعد جلاء القوات
البريطانية عن فلسطين في ١٥ أيار ١٩٤٨م، وأدرك الشعب الفلسطيني أنه
بات يخوض حرباً مصيرية لا هوادة فيها، فإمّا أن يحقق النصر، ويحبط
المخطط الصهيوني بإقامة دولة لليهود في فلسطين أو الهزيمة... وأبدى
العرب مقاومة ضارية في ساحات القتال، رغم بساطة الأسحة وقلة الذخائر
نسيباً، ولم يكتفِ الشعراء بالدعوة إلى حمل السلاح، بل قاتلوا إلى جانب
إخوتهم المجاهدين في سبيل حرية الوطن وحماية المواطنين العرب،
واستشهد أحدهم في معركة الشجرة وهو عبد الرحيم محمود، وحذروا من
التهاون والتخاذل.

١ - ودعا برهان الدين العبوشي إلى حمل السلاح ومجابهة العدو،
قائلاً: [الخفيف]

قد رأيتم بعينكم وسمعتهم يا بني العرب فانهصوا واستعدوا
أصبح الحق للسلاح وإنني لا أرى الحق بالبكا يُستردُّ
دججوا الشيب والشباب وسيروا لقراع الخصوم حيث استبدوا
من ينم عن حماه يلحق ثبوراً وهو في الأخسرين حتماً يُعدُّ^(٢)

ثم ناشد شعبه أن يعدّ العدة ويقا تل من أجل الدين والقاء: [الطويل]

علينا بهم هيا أعدوا سلاحكم وهل هم سوى أطفال صيدت لثموا؟
كذلك كانوا غير أن أمورهم بأيدي رجال علموهم ونظموا
ونحن لا يخفى عليك كما ترى نذود لا رأس يقود ولا فم

(١) في غمرة النكبة، ص ٢٩.

(٢) ديوان جبل النار، ص ١١٨.

إذا نحن قاتلنا فللدين والبقا فهيا اشتروا الأوطان مهما غلا الدم^(١) .
٢ - ويشجع محمود سليم الحوت أبناء يافا على الذود عن مدينتهم
وصد هجمات اليهود عليها: [الخفيف]

لغة النار يا حماة المدينة بعض ما ينطقون أو يفهمونه
فابعثوها جهنماً في ضواحي قلعة لن تكون يوماً سجينه
كلما اشتدت الضروس استعاراً أخلدوا في مذلة للسكينه
تلك يافا وهل تبين إلا خلف سورٍ من الشهاب أمينه^(٢)
٣ - ولما تأخرت نجدة الجيوش العربية لفلسطين، وسقط عدد من
المدن والقرى تباعاً - رغم وجود جيش الإنقاذ - مثل صفد وطبرية ويافا،
وحُجِبَ السلاح عن الناس، مع أنهم كانوا يبذلون لشرائه أثمناً خيالية،
وكانت الدول العربية تغطي تقاعسها وتخاذلها عن نصره أهالي فلسطين
بالوعود والخطب، ندد برهان الدين العبوشي بهذا الموقف، قائلاً: [مجزوء
الوافر]

مضت صفد وحيفائم يافا منتهى حبي
وما زلنا هنا ندعو إلى الحرب إلى الحرب
فهب الناس كلهم وكل الخير في الشعب
ولم نجد السلاح وما تفيد حماسة القلب^(٣)
٤ - وتعرب أسمر طوبي عن ضيقها وتمزقها توقاً إلى هدم حصون
الأعداء في قصيدة «١٥ أيار»: [المتقارب]

ويشيرها في عمق أعما قي زوابع عاصفات

(١) شيخ الأندلس، ص ٣٨.

(٢) كامل السوافيري: الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين، ص ٤١٥.

(٣) شيخ الأندلس، ص ٢٠.

توذة لو تمحو.. تدكُ حصون أعدائي الطُغاة^(١)

٥ - بدأت خطة اليهود في إجلاء المواطنين العرب تظهر واضحة

للعيان، ومن ذلك إجلاء أهالي صفد، وهذا هو محيي الدين الحاج عيسى يروي قصة سقوطها بتاريخ ١١/٥/١٩٤٨^(٢): [الكامل]

صفد وقد عاينت هول مصابها صرعت وقد فارقتها الحماة الصيد
ثار الرصاص وجنّ مقتحم الوغى وصدى المدافع صيحة ووعيد
فالأرض يعفر وجهها بقذائف والجو فيه لهولها ترديد
والجوُّ داج والرياح عواصف وبلاء ربك بعد ذاك شديد
مطرٌ طغت فوق الطريق سيوله أين الطريق ورسمه المعهود
هذا هو الوادي وتلك صحوره برزت وذاك طريقه المنشود
ساروا وهم يتلمسون رسومه يتعثرون ورشدهم مفقود
يتلفَّتون مودعين، فثاكلُ تبكي، وشيخ ذاهل، ووليد
كم مرضع ناءت بحمل وليدها تسعى لتنجو والنجاء بعيد
جثمانه للطير أصبح مطعماً أو للسباع ولا يُعاب شهيد^(٣)

وكشف محيي الدين الحاج عيسى النقاب عن خديعة الأعداء الميَّتة من

فرصة الهدنة الأولى، وما ترتب عليها من شرور وهزائم بقوله: [البيسط]

فكانت الهدنة الأولى مخاتلة حتى يسلم إسرائيل بانيتها
فأخفقت دول سبع لنا هرعت لنصرنا وهي شتى في مراميها
فكان ما كان من شرّ أحاق بنا ومن رزايا نعاني اليوم تاليها^(٤)

وخلال الحرب لجأ بعض الناس إلى «جامع دهمش» في صفد، فصب

(١) حبي الكبير، ص ٥٨. دار العودة، بيروت، ط ١ (١٩٧٢م).

(٢) عارف العارف، ج ١، ص ٣٠٠.

(٣) عبد الرحمن الكيالي: الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، ص ٢١٦.

(٤) أسرة شهيد - مسرحية شعرية من أحداث نكبة فلسطين، ص ١٣٣. دمشق، ١٩٦٦م.

عليه اليهود وابلأ من قذائفهم، فكانت المذبحة مروعة لا تقلّ وحشية عن مذبحة دير ياسين، فصوّرها محيي الدين الحاج عيسى بقوله: [الطويل]

و«جامع دهمش» المنكوب ألقوا عليه قذائف الموت الزؤام
وكان الناس قد لجأوا إليه فراراً من لظى القوم اللئام
مئات فيه من شيخ وطفل وبائسة قضاوا تحت الركام
فظائع من بني صهيون فاقت (أتيلاً) بالأذى والانتقام^(١)

وإثر سقوط اللد والرملة في ١١ و١٢ تموز ١٩٤٨م^(٢) سقطت مئات القرى المحيطة بهما، واستفحلت مشكلة المشرّدين، حيث بلغ عددهم يومئذٍ أكثر من نصف سكان فلسطين، فقال محيي الدين الحاج عيسى في ذلك: [المتقارب]

ورزء اللد والرملة أصاب القلب بالعلّة
فكان الغدر والترحيل والتقتيل بالجملة^(٣)

وأشاد محيي الدين بدفاع المواطنين عن هاتين المدينتين، قائلاً: [البيسط]

اللد والرملة البيضاء دافعتا دفاع حرّ فلا يعنو وينخذل
كتنا نبيع الحلبي نشترى السلاح بها والخصم تنجده في بغيه دول^(٤)

ومجد بسالة المواطنين وتضحياتهم حتى بعد نفاذ ذخيرتهم، وذكر إخراجهم من ديارهم، ونهب أموالهم ومتاعهم: [الوافر]

وكافحنا كفاحاً مستميتاً وأردينا العدى في كل ساح

(١) المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٢) عارف العارف: النكبة، ج ٣، ص ٥٩٩.

(٣) أسرة شهيد، ص ١٦١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٢.

وقد نفذت ذخيرتنا فصرنا نقاتل بالحراب وبالصفاح
وماذا بعد هذا؟ أخرجونا من البلدين في فلق الصباح
فما أبقوا لحالية حلاها أعقداً كان أم نرّ الشواح
ولا من درهم في جيب عانٍ عَفُوا عنه بعطفٍ أو سماح^(١)

وعندما انتهت الهدنة الأولى استؤنف القتال، فدارت الدائرة على العرب، وأخذت جيوش الدول السبع تتراجع بل تنهزم، ففرضت هيئة الأمم المتحدة الهدنة الثانية في ١٨/٧/١٩٤٨، ولما قبلتها الدول العربية غضب الشعب الفلسطيني، وأيقن أن هذه الدول أسلمته للذبح والتنكيل، وبث محمد العدناني زفرات ملتبهة، يخاطب هؤلاء قائلاً: [مجزوء الخفيف]

يا رعايد يا غنم غادروا هيئة الأمم
أيها السادة الألى ضيّعوا القدس والحرم
كلّكم فوق عرشه يجلس الآن كالصنم
قد قتلتم شعوبكم ثم نُختم على الرّمم
ثم قلتم تراجعوا فقضي العزمُ وانحطم^(٢)

٧ - وفضح محمود الحوت المسؤولين عن إضاعة فلسطين وذبح

أهلها بلهجة تميّز غيظاً ولوعة: [البيط]

ألم يقولوا لنا قد وقّعوا هُدناً نغمّ الذين بها من قومنا اشتركوا
كأنما وقّعت حتى يتاخ لهم أن يسفكوا من دم العزلاء ما سفكوا
ضاعت فلسطينا والسبع ليس لها إلا البهارج في الأقوال معترك^(٣).

٨ - وأجمل العبوشي شعور عرب فلسطين نحو الهدنة في بيت واحد

بقوله: [الوافر]

(١) المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٢) اللهيبي، ص ١٠٢ - ١٠٥.

(٣) ملاحم عربية، ص ١٩٣.

وقالوا: هدنة فُرضت لقد فرضوا وربك أن نضيقاً^(١)
٩ - ومع انتهاء حرب ١٩٤٨، وانسحاب الجيوش العربية من فلسطين، أصبحت أكثر أراضيها ومدنها وقراها بيد اليهود، بعد أن نزع عنها معظم أهلها الشرعيين، وأصيب الناس بالذهول، وسيطر عليهم الحزن والأسى، فزاغت الأبصار، وتاهت العقول.

وترجم هارون هاشم رشيد هذه الصورة الأليمة المفزعة في الأبيات التالية: [مجزوء الكامل]

وهناك في الميناء جمعنا شقاء النازحين

ما بين ولولة النساء وبين أقوال البنين

كلُّ يفتش عن بقايا أهله في الهائمين

ويسير زورقنا الكئيب وكلنا شبح حزين

وعيوننا مخضلة ترنو لأرضِ الثائرين

وقد استحالت موطناً للغادرين المجرمين^(٢).

و - في مساء اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول ١٩٥٦ - عشية العدوان الثلاثي على مصر - قامت القوات الإسرائيلية بارتكاب مذبحه في قرية كفر قاسم^(٣) العربية، حيث فرضت عليها منع التجول فجأة، وبدأت تقتل الفلاحين والعمال العائدين من أعمالهم إلى القرية، وبلغ عدد الضحايا

(١) شبح الأندلس، ص ٦١.

(٢) عودة الغرباء، ص ٣٢. المكتب التجاري، بيروت، ١٩٥٦م.

والأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة: «متى يعود أبي» ص ١٢١.

(٣) كفرقاسم قرية تقع قرب قلقيلية في المثلث في وسط الأرض المحتلة.

تسعة وأربعين شخصاً^(١)، فنظم الشعراء عدة قصائد حول هذه المجزرة الرهيبة.

١ - لمحمود درويش أناشيد كاملة - في مجموعة «آخر الليل» بديوانه - عن كفر قاسم باسم «أزهار الدم» يخاطب فيها الشهداء الخمسين الذين جُزروا في تلك القرية، وفيها يتحول الشهداء الخمسون إلى أوتار تعزف صمود الشاعر، ومنها قصيدة «مغني الدم» حيث يقول فيها:

آه! يا خمسين لحناً دموياً
كيف صارت بركة الدم نجوماً وشجراً؟
الذي مات هو القاتل، يا قيثارتي
ومغنيك انتصر

كفر قاسم!
إنني عدت من الموت لأحيا، لأغني
فدعيني أستعر صوتي من جرح توهج
وأعينني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج
إنني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاذ
أن أمشي على جرحي
وأمشي.. ثم أمشي.. وأقاوم!

(١) صبري جريس: العرب في إسرائيل، ص ٢٤٠ وما يليها.

وأنا يا كفر قاسم
أنا لا أنشد للموت، ولكن:
ليدِ ظَلَّتْ تقاوم^(١)!

٢- أما توفيق زياد فيقول في قصيدة «كفر قاسم»: [مجزوء المتقارب]

ألا هل أتاك حديث الملاحم
وذبح الأناسي ذبح البهائم
وقصة شعب: تسمى: حصاد الجماجم
ومسرحية قرية اسمها كفر قاسم؟؟

* * *

ومدّ الرّدى للضحايا ذراعا
ليقصف خمسين روحاً تباعا
فتسقط فوق الثرى الأسمر
لتسقيه خمر الدم الأحمر

* * *

وخيم صمّت ثقيلاً مديد
على حلّبة المجزره
وتقطعه قهقهات الجنود
لنصرٍ بمعركة ظافره
ويصرخ ضابطهم صرخة أمره
يشير لكوم الضحايا:

(١) ديوان محمود درويش، ص ٢٠٧ - ٢٠٩.

«كفى! إنهم سقطوا كالنشاره..»

كفى! فالرصاصة فيهم خساره..!!»

وتُفرض في أرضنا بالحراب

شريعة غاب، وظفر، وناب!!

أخي

إن في الأفق صوتاً يمور

هتاف الضحايا يشقّ القبور:

«هو الشعب يذبحه المجرمون

ألا أتحدوا أيها الكادحون

ألا أتحدوا أيها المخلصون

وضمّوا الصفوف وشدّوا العزائم

لمحو نظامٍ على الظلم قائم

نظام الخنا، والدماء، والجرائم..!!»

ونمضي: صدورا

تحدّث رصاصاً ونارا

وفي هذه الرقعة الساحرة

هنا.. في الجليل الأبي وفي الذصرة

لنا وطنٌ أثنخته الجراح
وروق طيره ذات صباح
وصار كبيراً مهيض الجناح

لنا وطن راسفٌ في القيود
وشعبٌ تشرّد عبر الحدود
ولكن . . سنمضي بعزم شديد
لنرجع حقاً أبى أن يبىد
سنرجعه

سنرجعه رغم أنف اللظى والحديد
ونجعله جئةً من جديد^(١)

إنّ في هذه القصيدة تصويراً رائعاً للفجيرة المؤلمة من جهة، وللإرادة الصلبة والعزم على الاتحاد والفداء والتحرير من جهة ثانية.

٣ - وفي عام ١٩٦٥ توجّه سميح القاسم مع بعض الشبان العرب في الأرض المحتلة إلى كفر قاسم للاحتفال بذكرى المجزرة الدامية، إلا أن جنود الجيش الإسرائيلي راحوا يمنعونهم من دخول القرية وإقامة المآتم، فتجمع القادمون خارج الأسلاك المضروبة حول القرية، وارتجل سميح هذه القصيدة: [الخفيف]

رغم ليل الخنى وليل المظالم حلّ وفد الكفاح يا كفر قاسم
رغم عسف الطاغوت يزيد سماً رغم سدّ الأسلاك في الدرب جائم

(١) ديوان توفيق زياد، ص ٣٠٦ - ٣٢٦.

رغم حقد الرشاش يشهره الظلم أتينا فليلعق الخزي حاكم

يا قبور الأحباب ألف سلام من قبور عزت عليها المعالم
أي شيء من العزاء نزجني؟ نحن في أسرة الحداد توائم
نحن جئنا، نهيب أن تستفيقي فلتلبي النداء... يا كفر قاسم^(١)

٤- ونظم حنّا أبو حنّا قصيدة طويلة عن كفر قاسم، قالها بعد عامين

من المجزرة، وأبرز مقاطعها: [مجزوء الكامل]

كيف العزاء؟ وكيف يسلو الويلّ شعبٌ ناكل؟

عصفت بروحته الخطوب وصارعتة نوازل

ما زال يحمل جرحه في صدره.. ويطاول

وتسير في دربِ الدماء، على خطاه، غوائل

... إن السبيلَ إلى العزاء تكاتفٌ وتكافل

ونداء أرواح الضحايا فليهب الغافل^(٢)

ز - من المعلوم أن القوات الإسرائيلية بادرت في الخامس من حزيران، سنة ١٩٦٧، إلى شنّ هجوم عسكري على الأراضي العربية، وتمكنت من احتلال سيناء وهضبة الجولان، فضلاً عن «الضفة الغربية» و«قطاع غزة»، اللذين أصبحت فلسطين كلّها، بسقوطهما، تروّح في ظلّ الحكم الإسرائيليّ الغاشم.

ووقف الشعراء، كعادتهم، وقفَةً تدلُّ على الوعي، وتنمّ عن البسالة

(١) غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، ص ١١٨.

(٢) غسان كنفاني: الأدب الفلسطيني المقاوم، ص ٨٤.

ورباطة الجأش، ولم يحفلوا كثيراً بتصوير المأساة رغم فداحتها، بقدر ما توجهوا إلى إعلان الإصرار على النضال والقتال وتحرير الأرض والإنسان، ومعالجة الخلل.

لقد دعوا وما زالوا يدعون إلى التمسك بالأرض، وعدم التنازل عن شبرٍ منها، ورفض المساومة، والتشجيع على إعداد العدة، والتضامن، والفداء، والتضحية، والتأكيد على أن «ما أخذ بالقوة لن يسترد إلاً بالقوة».

١- ونظم توفيق زياد قصيدة «كلمات عن العدوان» بعد عدوان حزيران عام ١٩٦٧ قال فيها:

من هنا مرّوا إلى الشرق غماماً أسودا
يقتلون الزهر، والأطفال، والقمح، وحبّات الندى
ويبيضون عداوات، وحقداً، وقبوراً، ومُدَى
من هنا سوف يعودون، وإن طال المدى
هكذا مات بلا نعيٍّ على الرمل شهيد
طلقةً في رأسه، صيحة قهراً ووعيد
حفر القاتل في مدفعه رقماً جديداً
ومضى يبحث، مثل الذئب، عن رقم جديد
وعلى بضعة أمتار بكى طفل وليد
عندما مرّ على جبهته السمراء جنزيرٌ حديد
لا تقولوا لي: «انتصرنا»!! ..
إنّ هذا النصر شرٌّ من هزيمة
نحن لا ننظر للسطح، ولكننا
نرى عمق الجريمة..

يا من سفكتم لي دمي
وأخذتم ضوء عيني، وصلبتم قلبي ..
واغتصبتم حق شعبِ آمِنٍ لم يُجرِمِ
وفتحتم في جراحاتي جراحا
وطعتم حُلُمي
ما الذي خبأتموه لغدي
إن غداً لم يهزم!
إنكم تبنون لليوم، وإنَّا لغدِ نعلي البناء
إن فينا نفساً
أطول من هذا المدى الممتد
في قلب الفضاء
ثم ماذا بعد؟ لا أدري، ولكن
كلّ ما أدريه أن الأرض حبلِي والسنين
كلّ ما أدريه أن الحق لا يفنى،
ولا يقوى عليه غاصبون
وعلى أرضي هُذي، لم يعمر فاتحون!! ..
فارفعوا أيديكم عن شعبنا
لا تطعموا النار حطب
كيف تحيون على ظهر سفينه
وتعادون محيطاً من لهب
نحن لا نأكل لحم الآخرين

نحن لا نذبح أطفالاً، ولا نصرع ناساً آمين

نحن لا ننهب بيتاً، أو جنى حقل

ولا نطفي عيون

إننا للمرة الألف نقول:

لا! وحقّ الضوء

من هذا التراب الحرّ لن نفقد ذرّه!!..

إننا لن ننحني للنار والفولاذ يوماً

قيد شعره!!..

كبوةٌ هذي وكم

يحدث أن يكبوا الهُمام

إنها للخلف كانت.. خطوةٌ

من أجل عشرٍ للأمام^(١)!!..

إنّ هذه القصيدة تنبض بالإباء والشمم، وتعبّر عن روح الصمود، ورفض الذلّ والهزيمة، وهي تعجّ بالثقة بالنفس، وتهدر بالأمل بدحر كل فاتح ومستعمر لهذا الوطن.

والشاعر يشبه النكسة بكبوة، ويعدّ بأن تليها عشر خطوات للأمام.

إنّ هذا التصوير رائع، يمثل روح الشبان المتوثبة المتمرّدة، الحرة الأبيّة، وهو أبلغ ما يحسن بالشاعر قوله في هذا المقام.

٢ - وهذا هو محمود درويش الذي ربط نفسه إلى أصوله، وعرف آفاقه، والتزم بارتباطاته الأصيلة، وبعده عن التخلّي والعويل..، قد مارس

(١) ديوان توفيق زياد، مجموعة «أغنيات الثورة والغضب» ص ٤٤١ - ٤٤٩.

دوره لمسؤولياته كشاعر وطني لثورة باسلة، أعلن التزامه بالسلاح والمثل،
 وحق الوطن عليه، فتلقى كارثة حزيران ١٩٦٧ بثبات وسمود، وجعلها حافزاً
 للنهوض والتغيير والقتال. . وهو يقول في قصيدة «ردّ الفعل»: [الكامل]

عنف النسور ورقّة المتفائل	وطنني! يعلمني حديد سلاسلي
ميلاد عاصفةٍ وعرس جداول	ما كنت أعرف أن تحت جلودنا
فتوهجت في القلب شمس مشاعل	سدّوا عليّ النور في زنانية
فنما على الجدران مرج سنابل	كتبوا على الجدران رقم بطاقتي
فمحت ملامحها ظلال جدائل	رسموا على الجدران صورة قاتلي
وكتبت أغنية العذاب الراحل	وحفرتُ بالأسنان رسمك دامياً
وغرزت في شعر الشموس أناملي	أغمدت في لحم الظلام هزيمتي
لم يفتحوا إلاّ وعود زلازلي!	والفاتحون على سطوح منازلتي
لن يسمعوا إلاّ صرير سلاسلي	لن يبصروا إلاّ توهج جبهتي
أصبحتُ قديساً بزّي مقاتل ^(١)	فإذا احترقتُ على صليبِ عبادتي

٣ - ويعبّر كمال ناصر عن حرقته وتمزّق كبده، نحسناً للمأساة
 الجديدة، ويعلق الأمل على وحدة الصف، ونهضة لأمة، وإخلاص
 المخلصين المحاربين، ويقول في قصيدة «جريمة الأمس»: [البسيط]

تفطّرت أكباداً، وامتنزفت تعباً	لولا العلال لم يسلم جرحي، ولا كبدي
بصدر غزّة تلقي الهول والرعباً	جحافل الدولة الشوهاء قد نفرت
موخدين، فنرضي الأمس والحقبا	جريمة الأمس هيا اليوم ندفعها
مذ كان تاريخنا أمماً لنا وأبا	ما ضرّ هذا وصافي العرق يجمعنا
ويحسن الكرّم من قد أحسن الهرباً ^(٢)	قد يُحسّن الحرب من يمشي لساحتها

(١) ديوان محمود درويش، مجموعة آخر الليل، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) الآثار الشعرية، ص ٩٤.

٤ - ويرى سميح القاسم أن قضية الشعب والأرض - الضحيتين - تُعرض على هيئة الأمم المتحدة، وكان شعب فلسطين يتيم، وليس له من «دول شقيقات» تحميه، أو تنتقم له، وتنتزع حقه المهذور، وهي على نقيض ما يتوجب عليها، تستمر في ضخّ البترول للذين يدعمون دولة العدوان.

وجاء في قصيدته «في ٥ حزيران»:

في الخامس من شهر حزيران الماضي،

طار جميع القتلى للأمم المتحدة

واشتركوا بالجلسة غير العادية

في الخامس من شهر حزيران الماضي،

ظلت آبار النفط العربية

ظلت تندفق عبر الأرض العربية

لبلاد الزيح الغربية

في الخامس

من شهر حزيران الماضي

لا أبكي لا أضحك^(١)!

٥ - ويقرّر معين بسيسو أن الاعتراف بالحقيقة المرة في أن الأرض ضاعت في معارك حزيران «الخاسرة»، وأن الاعتراف بالانهيار، والتجرؤ على الإقرار به خير من الاستمرار في الجعجعة الفارغة، ثم يقدم نصيحته بأسلوب ساخر، وبروح ناقدة، قائلاً:

الأرض ضاعت

لم يعد لنا في وتد لجام

(١) ديوان سميح القاسم، مجموعة في إنتظار طائر الرعد، ص ٤٢٩.

والسيف ضاع لم تعد لنا طاحونة

ولا برج من الحمام

لم يبقَ غير هذا الطبل

أوصيكم بالطبل أولاً

وثانياً بالطبل

وثالثاً بالطبل

وألف مرة أوصيكم بالطبل^(١).

ويبدو جلياً أن شعر معين يمثل صورة إبداعية مباشرة وبشعة، لحقيقة بشعة، وواقع مرير، ومعالجات هزيلة، وكأنها «لا تسمن ولا تغني من جوع»، وإزاء ذلك فإن شعره يمثل شعر الحقيقة... والشعر في نظره هو الحقيقة، وهو يعبر عن أسلوبه هذا وعن رأي الناس في قول الحقيقة، بقوله: [الخفيف]

إنني أكتب الحقيقة لكن ثورة الحق في بلادي كفر
قلمي في الحديد في ظلمة السج — سن، طريح مكب لا يصبر^(٢)

٦ - ويحرض محيي الدين الحاج عيسى على الدفاع عن الحق والحياض والمحارم، ويستنهض الهمم، ويبث الحماسة في العزائم، واثقاً بأن النصر حليف من يُعدّ العدة للمعركة، ويقول في قصيدة «ذكرى حزيران»: [المتقارب]

هذا حزيران يعود وجوه ما زال قاتم
الأهل يغمهم أساه ولصه يحصي الغنائم

(١) صبحي - محيي الدين: شعر الحقيقة (دراسة في إنتاج معين بيسو)، ص ٥٦. دار الطليعة، بيروت، ط ١ (١٩٨٢).

(٢) المصدر السابق، ص ٥٩.

لا يستوي الخصمان في الميدان: مهزوم وهازم
لا يستوي الخصمان: غافٍ في ليليه وقائم
فاهزم عدوك إن أردت من السلام سلام غانم
ودافع بمدفعك الخطوب، وصن حياضك والمحارم
وانفض عن العين الكرى، وانهض ودع أحلام نائم
من بات يرتقب المحال، فسوف يهلك وهو نادم
لولا أشاوس من بني قومي لظلّ الليل داهم
فاسلك سبيلك يا فتى الفتیان مشدود العزائم
مهما تواری الحق فهو على دى الأيام قائم
فاجمع قواك فإنها طب لسحق البغي حاسم^(١)

ح - إن نكسة عام ١٩٦٧م وجراحاتها، وآثارها البليغة، قد ضاعفت في الشعب الفلسطيني روح النقمة، والإصرار على الثأر، وسلوك سبيل الكفاح المسلح بغية تحرير الوطن ورفض الاستسلام.

ومن هنا تفجرت طاقات الأحرار في صفوف الجماهير بقيام عدة منظمات فدائية، وبذلك أشرفت شمس الثورة الفلسطينية، وراحت مجموعاتها تشن هجمات متوالية على القوات الإسرائيلية انطلاقاً من الأراضي المحتلة ذاتها ومن الأراضي الأردنية في البداية، وأخذت تلحق بها خسائر مختلفة، فشنت القوات الإسرائيلية بدورها هجوماً كبيراً على الفدائيين في مواقع «الكرامة» بتاريخ ٢١/٣/١٩٦٨، للقضاء على ثورتهم، والتخلص من الخطر الذي يشكلون، والخسائر التي به يلحقون. ودارت معركة طاحنة استبسل فيها الفدائيون، وأجبروا القوات الإسرائيلية على التراجع، مخلفين وراءهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد.

(١) من فلسطين وإليها، ص ١٤٤ - ١٤٦.

وهللت الجماهير فرحة بهذا النصر، وتفاعلت خيراً بشعلة الثورة الجديدة وحتمية انتصار الحق على الباطل، طال الزمن أم قصر، بعد إظهار الدليل على خطأ المقولة المزعومة بأن قوات «إسرائيل» لا تقهر.

ويبرز دور الشعراء من جديد بالكلمة المقاتلة التي تفعل فعلها الكبير إلى جانب الرصاصة، في مسيرة الكفاح المسلح، التي لا يمكن أن تقتصر على البندقية وحدها..

١ - ويحتي محيي الدين الحاج عيسى المقاتل الفلسطيني الذي أبدى شجاعة وبطولة فائقتين، وأفضل أمل عدوه في قهره، وذكر العرب ببطولاتهم السابقة وأمجادهم الغابرة، فبعث فيهم روح الاعتزاز، ورسخ فيهم الإيمان بحتمية النصر، ويبدو ذلك في قصيدته «معركة الكرامة»: [الكامل]

سلمت يمينك أيها البطلُ فالبغي ولئى وهو منخذلُ
قد غرّه غدرٌ مضى زمناً فالدهر في أيامه دؤلُ
هذي الديار ديارنا، رقدت فيها الأصول أصولنا الأولُ
خسى الدخيل فلن يقرّ له عيشٌ، ولن يحيا له أملُ

أرض الكرامة أنتِ خالدةٌ للعرب فيك من الفدى مثلُ
جاء العدو يبغون فيك أذىً وتعللوا ما شاءت العللُ
فإذا المعاقلُ وهي مرعدةٌ تردبهمو من قبل أن يصلوا
وإذا الحرابُ البيضُ عاملةٌ بين الضلوع كأنها أسلُ
وإذا الزنود السمرُ تحصدهم حصداً ذريعاً أينما نزلوا
حتى فتاة الخدر قد خرجت بين الرجال كأنها رجلُ
فإذا العدو يفرُّ من جزع لم يحمه سهلٌ ولا جبلُ
لم يُجده عَدَدٌ ولا عُدَدٌ أبداً ولا مكرٌ ولا جيلُ

من رام مأسدةً أصاب أذىً أو بات وهو لأسدها أكل^(١)

٢ - ويحتوي كامل الدجاني أبطال الكرامة، الذين صدّوا العدو وردّوا الكرامة وبدّدوا الخوف والقلق من النفوس...، ثم يؤكد أن الفداء والإقدام يرذآن العدى، ويتوعد عدوّه بالشار، واثقاً أنه لن يدعه يستقر أو ينعم بالراحة في فلسطين العربية، حيث يقول في قصيدة «يوم الكرامة»: [البيسط]

حيّ الكرامة واهتف باسم فتيتها
والرابضين الرواسي في رواسيها
وامسح على الجرح بالتكريم، إن لهم
حقّ الرجولة في تكريم أهليها
ردّوا الكرامة عند الرّوع راضيةً
يوم الكرامة، إذ نادى منادياها
جاء العدو يسوق النار مضرمةً
ملء الوهاد وملء الجوّ داويها
فاستقبلوه بنارٍ من صدورهم
أشدّ وقدأ، ونارٍ من مواضيها
الدار، والشار، والأبرار مُشرفةً
ملء المسامع والأبصار داعيها
الله أكبر! هذا الصوت صوت أبي
لبيك يا وطني، لبيك يا شرفي
وانقضّ كالشهب، لا يرتدّ عن هدفٍ
عاد العدو، يجرّ الخزي، مندحراً
وئى وخلى دروع البغي شاهدةً
هو الفدائي، أعطى الروح خالصةً
وهي المواطن، نادته فثار لها
هذي الطريق، وقد بانت مسالكها
نارُ الفداء أضاءت في جوانبها
أقدم على الموت يرتدّ العدى رهباً
من استمات اتقاه الموت، وابتسمت
الدار داري والجنات غرس يدي

(١) من فلسطين وإليها، ص ١١٦ - ١١٨.

لن تستقروا بها، ولن تنعموا أبداً بالظّل والرّوح في أفياءٍ واديها
غداً على ذرواتِ القدس موعداً إلى البطاح، وفي الشاطي مراسيها^(١)

٣ - ويوجّه خالد أبو خالد قصيدة إلى الفدائي في معركة الكرامة،
عنوانها «أعياد الدم»، يحيي فيها الفدائي، ابن العشرين عاماً، الذي قُطعت
يداه بينما كان يحمل الراية في المعركة، ويهبه يديه تقديراً له وتكريماً،
ويقول:

أفقت في منابر الوعّاظ دون وجه

عشرون يا حبيبي المقطّع اليدين

حملت رأيتي، فدينتي

فخذ يدَيَّ يا عطاء مقلتي

يا نعم ما أعطيتني^(٢)

ط - ويقف الشعراء جنباً إلى جنب مع المقاتلين، بل يقفون في مقدمة
مسيرة الشعب الصابر الصامد والمجاهد، في الأحداث المختلفة، التي تتوالى
في الأرض المحتلة: من انتفاضات - آخرها انتفاضة أطفال الحجارة - إلى
المظاهرات ورفع الشعارات والأعلام وإلقاء الخطابات، إلى المؤتمرات
والمحاضرات.

وثورة الحجارة الحالية ليست الأولى، وإنما سبقتها ثورات أخرى
مماثلة، ولو على نطاق أضيق، ويحيي الشاعر أحمد أبو ستّة هؤلاء الأشبال
الثوار بقوله في قصيدته «انتفاضة الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة»:

[الكامل]

(١) في غمرة النكبة، ص ٣٦ - ٣٧.

(٢) وسام على صدر الميليشيا، ص ٦٤.

سلمت يمينك مع شمالك والقدم
 زمناً تجرّعت المرارة والأسى
 وحُرمت من نيلِ السعادةِ والأمنى
 ونهضت من جورِ الليالي والرّدى
 دوماً تقارع بالحجارة والحصى
 فجعلت من كفّ الصبيّة والفتى
 وعزمت أن تسعى لحقّ أصله
 وطنٌ به أجدادنا وعظامهم
 قاومٌ ولا تخشّ المنية والأذى
 أصمّد فلربّ أبناء العروبة جلجلوا
 يا مَنْ تحاول جاهداً رفع العَلَم
 وهضمت أعوامَ التمزُّق والألم
 ورخلت في عيش التشرّد والخيم
 وضربت أحلام اليهود من القدم
 جيشاً يفاخر بالشجاعة في القيم
 بارودة ترمي الحجارة كالجِهم
 وطنٌ أضاعته المراكبُ والأمم
 فعظامنا تواقّة كي تلتئم
 خيرٌ لنا ذا الموت من عيشِ الندم
 أركانها بجحافلٍ لا تنفصم^(١)

يصور الشاعر في هذه القصيدة الحياة القاسية المرّة التي تجرّعها هؤلاء الأشبال وأهلهم، إذ حُرِموا من الحياة الهانئة السعيدة، بعد أن سلخهم التشرّد عن أرضهم، ومزّق شملهم، فالتجأوا إلى الخيم، وعاشوا حياة البؤس والحرمان، وكان العنفوان والانتصار على صروف الدهر، وانتفض هؤلاء بعزيمة الأبطال الأباة بعزة وشمم، وراحوا يحطّمون أحلام اليهود في الحياة السعيدة، فقارعوا جيشه بالحجارة والحصى والعصي والسكاكين، وقنابل «المولوتوف»، وتلقّوا الضربات بصدورهم، وسحقت بعضهم الدبابات، وكسّر عظم بعضهم أمام المسجد الأقصى، وجيوش العرب وحكامهم يتفرّجون ويترخّمون... سقط الكثيرون من هؤلاء الأبطال - وهم يهتفون الله أكبر، فلسطين عربية - بين جريح وشهيد وأسير، واستمرّ الباقون - بين كَر وفرّ - على العهد، وحققوا ما يشبه المعجزة، حيث بات الجندي الإسرائيلي يهرب، وهو يحمل بندقيته، أمام الأطفال والأشبال الأبطال، ويرتعد خوفاً من لقائهم، وطالما تمللم الكثيرون من جنود العدو، ورفض آخرون هذه

(١) محمد عطوات: مخطوطة بعنوان: من روائع الشعر الفلسطيني المعاصر.

المواجهة، واعتبروها عبثية، لأنها لن تقوى على إرادة شعب جبّار، ظل يقارع الاستعمار البريطاني والصهيونية منذ أكثر من سبعين عاماً، وما زال تصميمه على النضال وانتزاع حقوقه يزداد ولن يضعف.

لقد صرّح العديد من جنود العدو وضباطه لأكثر من صحيفة بالملل من مقارعة الفلسطينيين، والفشل في إخماد جذوة النضال والانتفاضة لديهم، واعترفوا ببطولة الجماهير الفلسطينية وقدرتها على الاستمرار في النضال، وأخفوا اعتقادهم بأنها على حقّ، وأنهم على باطل لا بدّ أن ينهزم ويندحر.

ويختم شاعرنا القصيدة بالدعوة إلى استمرار شعلة الثورة والمقاومة، متوخياً الصبر والصمود، ونجدة عربية للجماهير المقاتلة الأبية، علّها تحطّم أركان الطغاة، فالمعركة قاسية وطويلة، وتستأهل أسلحة العرب الفعالة وطاقاتهم الكبيرة الواسعة. . .

سادساً: الحكام والشعب

قيل: العدل أساس الملك. وكلمة حاكم مستخرجة من فعل حكم بالعدل والمساواة والإخلاص، والحاكم النبيه الساهر على سلامة شعبه ووطنه هو ثروة ونعمة، والعكس صحيح. ولو حظيت بلاد العرب بحكام من الصنف الأول لعمّ العدل والأمن والهناء والرخاء كل أرجاء الوطن، ولما تجرّأت الصهيونية على إقامة دولة لها في قلب الوطن العربي (فلسطين). وكلّنا يعرف أن وحدة صفّ انزعماء وتعاونهم وإخلاصهم يكفل إنقاذ الوطن العربي عامة وفلسطين خاصة، من الولايات التي تحلّ بهما، ولكانت بلاد العرب عامة - وهي غنية بالثروات والمناخ والموقع - منيعة قوية، مهيبّة الجانب، بل جنة الله على الأرض، ونحن نسأل من لا يقَرّ بذلك: من المسؤول إذا عن تدهور الأوضاع العربية وضياع فلسطين؟ ونؤكد أن ثروات الوطن العربي وحدها تشكل سلاحاً فعالاً يؤثر في الأعداء وأعدائهم، ويغيّر

الموازين . . أما الشعب فهو الذي يعمر البلاد، ويبني الأمجاد، ويحفظ تراث الآباء والأجداد، يذود عن الوطن، ويثور على الظلم، وينشر لواء الدين والعلم.

١ - وعندما زار فلسطين الأمير سعود بن عبد العزيز (الملك سعود) في ١٤/٨/١٩٣٥، ألقى بين يديه الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود قصيدة مهمة بعنوان «نجم السعود» قال فيها: [الكامل]

المسجد الأقصى أجتت تزوره أم جئت من قبل الضياع توذعه؟
حُرْمٌ تبأخ لكل أوكع أبق ولكل أفاق شريد أربعه
وغداً وما أدناه لا يبقى سوى دمع لنا يهمي وسنّ نقرعه
ويقرّب الأمر العصيب أسافل عجلوا علينا بالذي نتوقّعه^(١)

ويبدو جلياً أن هذا الشاعر النبیه قد تنبأ بضياع فلسطين في وقت مبكر، ونبه إلى هذا الخطر الذي كان يحس به؛ ولهذا سأل الأمير السعودي إن كان قد جاء لزيارة المسجد الأقصى وتفقدته، أم لوداعه قبل ضياعه وسيطرة اليهود عليه، وصارحه بأن الخطر داهم، و«فلسطين تتوقع منكم النجدة والعون لتتقدوها قبل مضيّ الفرص المتاحة . .».

٢ - ويثور عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) على الزعماء العرب، ويندّد بتقصيرهم بشأن فلسطين في عدة قصائد، منها قوله في قصيدة «المشرد»: [الرمل]

يا رفاق الدهر هل شردكم في الوري غدر عدو أم محب؟
زعماء دنسوا تاريخكم وملوك شردوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لها سلّمت أوطانكم من غير حرب
دولّ تحسبها شرقيةً فإذا أمعنت فالحاكم غربي

(١) ديوان عبد الرحيم محمود، ص ١١٤ و ١١٥.

يوم هزّت للوغى رياتها حكمت فيه على تشريد شعب^(١)

ويقول في قصيدة ثانية عنوانها «التراب الخضيب»: [الخفيف]

يا فلسطين كيف أهتف والقلد ب ينادي ولا يلاقي مجيباً؟
من يلتي النداء يطلبُ ثاراً ودماً ضائعاً، وحقاً سليبا
أملوك؟ وهم إذا نُسب العا ر إليهم أبى انتساباً معيباً؟
أرجال؟ أين الرجولة لما زحفوا يلثمون تلك الدروبا؟
أيها الناسجون آلام شعب كيف تجلونها رداءً قشيبا
قل لمن يرفعون في كل قطرٍ علماً خافق الجناح عجيبا
دوّن كالدمى تمثّل دُوراً رسموه لها وفصلاً مريباً^(٢)

في هاتين القصيدتين ينهم الشاعر - وبصراحة - زعماء العرب بالتواطؤ في تشريد الشعب الفلسطيني، والسكوت على اغتصاب فلسطين. وهذا ما يتنافى مع مسؤولياتهم، والأمانة التي يحملون، فضلاً عن التفريط بالأرض العربية المقدسة، وكأنهم - في رأي الشاعر - يمثلون دوراً خطيراً مرسوماً. . .

٣ - وفي اليوم التالي لإذعان زعماء العرب لفرض الهدنة الثانية في فلسطين عام ١٩٤٨م بدل مهاجمة العدو الباغي، الذي كان قد احتل معظم الأراضي الفلسطينية، أطلق للشاعر محمد العدناني العنان لقلمه، فقال في قصيدة «غادروا هيئة الأمم»: [مجزوء الخفيف]

أيها السادة الألى ضيَعوا القدس والحرم
ما لكم قد نسجتم الشرَّ والهولَ في الظلم
قد قتلتم شعوبكم ثم نُختم على الرِمم
قد شددتم شكيمها^(٣) فتلوّت من الألم

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ١٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣.

(٣) الشكيم: مفرداً شكيمة، وهي حديدة اللجم المعترضة في فم الفرس.

وكبثتم حماسها وهي تنصب كالديم
وكبحتم جماحها وهي تنقض بالحُم
ثم قلت تراجعوا فقضى العزم وانحطم
وجعلتم من العدا أذُوباً، والعدا غنم
فارحلوا عن ربوعنا وخذوا الجبن والقَرَم^(١)

ويقرّر الشاعر محمد العدناني أن زعماء العرب هم المسؤولون عن ضياع القدس، لا سيما وأنهم يقيّدون حرّية الشعب، فلا هم حموا فلسطين... ولا هم أطلقوا سراح الجماهير العربية كي تعدّ العدة وتحررها، وأكثر من هذا، فإنهم تركوا «الذئب يأكل الغنم...»، ولهذا طالبهم بالرحيل العاجل...

٤ - ويصبّ يوسف الخطيب جام غضبه على العرب وحكامهم، ويصل به اللوم والنقد لهم إلى حدّ التساؤل عمّا إذا كان هؤلاء ينتسبون إلى سلالة العرب الأمجاد، الذين خرج منهم النبي محمد ﷺ، ونزل فيهم الوحي، ثم حقّقوا انتصارات اليرموك وشمالي إفريقية والأندلس وغيرها، ويقول في قصيدة «هذي الملايين»: [البيسط]

أكاد أؤمن، من شكّ ومن عجبِ هذي الملايين ليست أمة العرب
هذي الملايين لم يدر الزمان بها ولا بذى قاز شدت راية العلب
ولا تنزل وحيّ في مراتبها ولا تبوك روت منها غليل نبي
ولا على طنّف اليرموك من دميها توهج الصبح تياها على الحقب
ولا السفين اشتعال في المحيط، ولا جواد عقبه فيه جامع الحبب
لكنني، وبني شعبي، تخطّفنا قيل الملوك: ألا لا بُدّ من هرب
فكلّ عرس على بقيا جماجمنا أرسى قوائمه مختالة الطنب

(١) ديوان اللهب، ص ١٠٣ - ١٠٥.

لم يدرِ أن عظامَ الأبرياءِ به الغامُ ثأرٍ، تدوي ساعةَ الغضبِ
ما للجماهيرِ لم تفتح جهنمها للفتاحين، ولم تزار، ولم تثبِ
أقد سرى خدرُ الأفيونِ في دمها فما تُحسُّ عليه صحوةَ الغضبِ^(١)

٥- ويعلن عبد الرحيم محمود أن هذا الشعب مُتمرس في النضال
وتحمُّل الصعاب، فهو لا ينام على ضيم، ولا يستكين لظلم وعذاب، ويقول
في قصيدة «الشعب الباسل»: [مجزوء الكامل]

شعبٌ تمزس في الصُّعاب ولم تنل منه الصعاب
لو همّه انتاب الهضاب لدكدكت منه الهضاب
متمردٌ لم يرض يو ما أن يقَرَّ على عذاب^(٢)

٦ - ويطلب الشاعر عبد الكريم الكرمي من الشعب أن يقتر مصيره
بنفسه، ولا يكله إلى الذين يبصمون على القرار: [مجزوء الكامل]

يا أيها الشعبُ النبيل أمِنتَ من شرِّ العقار
أنت الذي تهدي السبيل من اليمين إلى اليسار
قرزُ مصيرك أنت لا من يبصمون على القرار^(٣)

٧- ويتحسّس الشاعر كمال ناصر إباء الشعب، وقدرته على سحق
الضيم، واستيعاب النوازل والجراح، ومراقبة الحكام ومحاسبتهم، ويقول في
قصيدة: «أنا الشعب» [المتقارب]

أنا الشعبِ إمّا تلتفت كبرٌ على الدرب، أو ماج طيف الإباء
أمدُّ جناحي عبْرَ الجراح فمن كبرياء، إلى كبرياء
ولدت كبيراً على الضيم، صدري يطاول في الكبر صدرَ السماء

(١) مخطوطة قصائد مستقلة للشاعر بعنوان: «مختارات من الأعمال الشعرية الكاملة»
ص ١٤٩ - ١٥٢.

(٢) ديوان عبد الرحيم محمود، ص ١٢٤.

(٣) ديوان المشرد، قصيدة «نور ونار» ص ٦٤. دمشق، ط١ (١٩٥٣).

رقيبٌ على دجلِ الحاكمين أُطلُّ لهم من ضمير الخفاء
أثورٌ إذا مسَّني ظالمٌ وأخفقُ بين جراحِ الفداء^(١)

٨ - ويهدر طوفان الشعب على لسان حنّاً أبو حنّاً، فيقول في قصيدة

«شعب أنا»: [مجزوء الكامل]

شعبٌ أنا . . .

من يسجن الشعب المعتمد بالكفاح

قالوا حبست . .

فقلت شعبي الحرّ يملأ كل ساح

ينبوعه الفياض يروي بالفدا زرع الصباح

يتمخض التاريخ عن أيامه العُرّ الملاح!

فل للطغاة: أسمعون هدير طوفان الشعوب

لا فلك تنجيكم . . ولا كفارة تمحو الذنوب . .

اليوم تحشد جمعها فوق الخرائب للنعيب . .

ويرنّ في وادي الظلام دويّ إعصارٍ رهيب!

شعبٌ أنا . . إن يحسبوا فرداً فكَلَّ الشعب نائر

وإذا يصفد^(٢) شاعر هتف النشيد بكلّ شاعر

شعبٌ يمدُّ حشوده جسراً على نهر المجازر

ويعانق الفجر الملوّح بالضياء وبالبنائير^(٣)!

(١) الآثار الشعرية، ص ٣١٧.

(٢) يُصَفَّد: يُكَبَّل.

(٣) نداء الجراح، ص ٦١ و ٦٢

سابعاً: الصمود - الفداء والبطولات والشهداء

الثبات على المبدأ، والصمود في الوطن، أو حتى في أرض الغربة دون التنازل عن حق، ورفض المساومة، ومتابعة النضال والاستبسال أو التضحية، هي واجبات المواطن الصلب الحرّ الأبّي، وهذا ما يراه كل ذي بصر وبصيرة، ماثلاً للعيان وبقوة في جماهير الشعب الفلسطيني، المتمرس في النضال والشمم، دون كلل أو ملل، حتى باتت مضرب المثل في الشجاعة والصبر والصمود، وأصبحت مضموناً حقيقياً مشرقاً لهذه الشعارات الرفيعة، بحيث لم تعد تذكر إلاً ويتذكر العارفون المنصفون الشعب الفلسطيني وكفاحه الطويل، ومواجهته المستمرة لأقوى وأشرس أعداء لحرية الشعوب وحقوقها.

وكم من ثورة في العالم سعت لخطب وذ الثورة الفلسطينية، والاستفادة من خبرة رجالها الأشاوس وبأسهم الشديد، وقدرتهم العالية في التكيف مع الأحداث وتطوراتها...، وتأمين أسلوب «تكتيك» لكل حادث وحال... وأضيف لو جرت مقارنة بين الشعر الفلسطيني الوطني والمقاتل ومثيله في سائر بلدان العالم لبزّه في المعنى خاصة، ولكان الثاني يحتاج - كما احتاج ثوارهم إلى خبرات ثوار فلسطين - إلى اقتباس مواقف ومعانٍ وصور جميلة يمتاز بها الشعر الفلسطيني، وهذا ما يدعو إلى الاطمئنان والفخر والاعتزاز.

ولا بُدّ من القول إنّ ثنايا البحث قد تضمنت، فيما سبق، العديد من القصائد التي تنم عن الصمود والفداء والبطولات والشهداء، وعلى سبيل المثال فقد سبقّت الإشارة إلى:

أ - بعض ما نظمه شعراء الأرض المحتلة بشأن الصمود...

ب - الفداء والبطولة والاستشهاد، لا سيما عندما تحدّثت عن أبطال الثلاثاء الحمراء سنة ١٩٣٠ (فؤاد حجازي، محمد جمجوم، وعطا الزير)، والشهداء الأبطال: عزّ الدين القسام، فرحان السعدي، عبد القادر الحسيني،

فضلاً عن البطولات والتضحيات في حرب ١٩٣٦ و١٩٤٨ و١٩٦٧ ومعارك القسطل ودير ياسين والكرامة.

وهكذا أجدني في غنى عن التكرار، ولكنني سأضيف عدّة نماذج

للأهمية:

١- يقول إبراهيم طوقان في قصيدة «الفدائي»: [مجزوء الخفيف]

لا تَسْلُ عن سلامته روحه فوق راحته
يَرْقُبُ الساعةَ التي بعدها هولُ ساعته
صامتٌ لو تكلم ما لَفَظَ الثَّارَ والدُّمَّا
هو بالباب واقفٌ والرّدى منه خائفٌ
فاهدأي يا عواصفُ خجلاً من جرائته^(١)

هذه الصورة التي يعبر بها إبراهيم عن الفدائي تعتبر آية في الروعة والقوة، فقد وضع روحه فوق راحته، وكلامه من نوع آخر، إنه إطلاق النار على العدو حتى أن العواصف خجلت من جرائته، والرّدى الذي يخيف سائر الناس بات يخاف هذا الفدائي البطل.

٢ - ويثور بركان البطولة الشهيد عبد الرحيم محمود الذي عمّد

قصيدته «الشهيد» بدم استشهاده في معركة «الشجرة»، يوم كان يقود الجنود كضابط ويقترح تلك البلدة، قال في قصيدته: [المتقارب]

سأحملُ روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الرّدى
فإما حياةٌ تسرُّ الصديق وإما مماتٌ يغیظُ العدا
ونفسُ الشريفِ لها غايتان ورودُ المنايا ونيلُ المُنَى
بقلبي سأرمي وجوهَ العُداة وقلبي حديدٌ وناري لظى

(١) ديوان إبراهيم، ص ٩٤.

وأحمي حياضي بحدّ الحُسام فيعلمُ قومي بأني الفتى^(١)

لقد كان مثلاً في صدق القول وفي صدق البطولة والفداء والشهادة.

وحق القول بأنه رمز البطولة والفداء والشهداء، في صفوف الشعراء

خاصة.

ويعلن تلبيته الصادقة لدعوة الجهاد بفرحة وحماسة قائلاً: [الوافر]

دعا الوطنُ الذبيحُ إلى الجهادِ فخفَّ لفرط فرحته فؤادي

وسابقتُ الرياحَ ولا افتخار أليس عليّ أن أفدي بلادي؟

وقلت لمن يخافُ من المنايا أتفرقُ من مجابهة العوادي؟

أتقعد والحمى يرجوك عوناً وتجنبن عن مصاولة الأعداي؟

وللأوطانِ أجنادُ شدادٌ يكيلون الدمار لكل عادي

أثيروا للنضال الحقُّ ناراً تُصبُّ على العدا في كل وادٍ^(٢)

٣ - وهذا هو الشاعر فتح الله عواد السلوادي يضمن قصيدته «ذكرى

استشهاد عبد القادر الحسيني» أجمل المعاني التي يتحلّى بها الفدائي الشهيد،

من خلال شخص القائد البطل عبد القادر الحسيني، حيث يقول: [الكامل]

عَلِمُ الجهادِ الحرُّ عبد القادرِ ذكراك بالإكبار تملأُ خاطري

القسطلُ الحمراء تذكُرُ هِمَّةً شَقَّتْ لنيلِ المجدِ حُجُبَ مخاطرِ

وحديثُ بأبيكَ عزَّةً وكرامةً رفعت لدى التذكّار هامة فاخرِ

آثرتُ موتَ الأكرمين فلم تُمث ما مات مَنْ دفعَ الهوان بوجهِ

ومضى بعزّةٍ أريحي طاهرِ لكنَّ من يرضى الحياةَ ذليلةً

مَيتٌ وإن لم يثو بين مقابرِ

(١) ديوان عبد الرحيم محمود، ص ١٢٠ - ١٢٢.

(٢) ديوان عبد الرحيم محمود، ص ١٤٠.

يأبْنَ البطولةِ نمَ قريرَ العينِ في خُضِرَ الجِنَانِ على النعيمِ الوافرِ
 بينَ الديارِ شبيبةً جبارةً ستعودُ للأوطانِ صولةَ قاهرِ
 ذكراكَ لا تفتنى فكلُّ فتى بنا يلقي به الأعداءُ عبدَ القادرِ
 هي غيمةٌ زبداءُ حلُّ قتامها بخديعةٍ تمّت بأمسِ الدابرِ
 ستزِيلُها ريحُ البطولةِ في غدٍ ويعودُ للفردوسِ كلُّ مُغادرِ^(١)

إنه تصوير رائع لبطولة عبد القادر الحسيني، قائد الجهاد المقدس في فلسطين، الذي تقدّم جنده، وقاتل إلى جانبهم خطوة خطوة، حتى تمكن من استعادة بلدة القسطل، ثم كانت المفاجأة باستشهاده خلال اقتحام أحد شوارع البلدة، واقتربت الفرحة بهول استشهاد القائد، فأكبر الجميع هذا الإقدام، وهذه التضحية الجُلى، ويات عبد القادر وكلُّ شهيد مثله قدوة لنا، ومضرب مثل في الإقدام والبطولة والتضحية.

وترجم الشاعر مشاعر الجماهير الحقيقية في إكبار هذا القائد وتخليد ذكراه، حتى حقّ تصويره علماً للجهاد، وهو الذي فضّل الاستشهاد وجنّة الخلد على السلامة، والقبول باحتلال «القسطل» أو غيرها. وفسّر الشاعر النكبة بغيمة تمّت بالخديعة، وأبدى ثقته بأن المجاهدين الأبطال سيزيلونها بالثأر، ويعود عندئذٍ لفلسطين شعبها المشرّد.

٤ - ويدعو الشاعر الوطني محيي الدين الحاج عيسى بني قومه إلى إعداد عدّة الحرب، قائلاً: [مجزوء الخفيف]

يا بني قومي الألى ازدانوا بفضلٍ وسماح
 وذوي البأس الذي أردى العدا في كل ساح
 إن هذا العار لا يمحوه غير الدم ماح
 فأعدّوا عدّة الحرب وهبوا للكفاح

(١) كامل السوافيري: الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين، ص ٤٢٠.

وانفروا شيباً وشباناً على متن الرياح
وازحفوا خفاقة أعلامكم خفق الجناح
أشعلوها تقذف النيران حمراء الوشاح
وتثير الأرض بركاناً على الخصم الوقاح
ليس تبقي واحداً منهم يرى نورَ الصباح^(١)

٥ - وهذا أيضاً الشاعر علي هاشم رشيد يدعو للجهاد، ويؤكد صمود
هذا الشعب وثباته على مبادئه بقوله في قصيدة «هيا للسلاح»: [مجزوء الرمل]

حطموا القيد وهيا للجهاد
من يجد بالروح رغم الظلم ساد
رمزنا في الحرب حزم واتحاد
ديننا عدلٌ وثأرٌ ووفاء

نشهد الله بأننا لن نحيد
بل سنمضي بمضاء كالحديد
بلهيب حاقِدٍ قاسٍ عنيد
نَحطُّ القيدَ ونسعى للعلاء^(٢)

ويناشد هذا الشاعرُ الثائرُ أن يحطم القيد ويتزحزح، ولا يرضى بديلاً
عن وطنه بقوله: [الرمل]

أيها الثائر والحق سلاحك
وسطور النور ترويهها جراحك

(١) من فلسطين وإليها، ص ٧٢.
(٢) ديوان أغاني العودة، ص ٧٩ و ٨٠. دار مفيض للطباعة - القاهرة ١٩٦٠م.

والدجى الأسود يمحوه كفاحك
حطمَ القيد ولا ترضَ السكوت
إن من يسكت بالذلّ يموت
فلنا الفجر وآيات الصباح
وهشيم الظلم تذروه الرياح

في فلسطين على الأرض قراري
لست أرضى غيرها لست أماري

**

فهم الأعداء لن نخدع بعد

قد شبينا وأتانا اليوم رشد

إنما الفجر سيمحو كل ظالم

وسيبقى الحقُ لماعِ المعالم^(١)

لقد اشتهر هذا الشعب بالتمسك بالأرض وعدم التنازل عنها، رغم الإغراءات والمساومات، ورفض التوطين، ولم يرضخ للضغوط والمؤامرات، ولم يقبل بديلاً من فلسطين، ويصخ فيه قول ابن الرّومي: [الطويل]

ولي وطنٌ آليتُ ألا أبيعهُ ولا أرى غيري له الدهرَ مالكا^(٢)

وقول أحمد شوقي: [الخفيف]

(١) ديوان أغاني العودة، ص ١٦٩ - ١٧٢.

(٢) العقاد - عباس محمود: ابن الرّومي: حياته من شعره، ص ١٣٩. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٨٤م.

وطني لو شُغِلت بالخلدِ عنه نازعتني إليه في الخلدِ نفسي^(١)
وفي قصيدة «الشهيد» وتكريماً لكل شهيد، يحيي علي هاشم رشيد
شهيد الحقّ الذي لاقى ربّه في ساحة المجد من أجل الوطن ليسمو إلى جنة
الخلد مطمئناً هائلاً: [الرمّل]

صففوا الغار على فخر الجباه واسمعوا الألحان تهمل من سماه
فشهيد الحقّ لاقى ربّه وقضى في ساحة المجد مناه
ما شهيد الحقّ إلّا قبسٌ من ضرام الثأر يهديننا ضياه
دمه الطاهر مسكٌ عاطر نفحة الإيمان في عطر ثراه
في الخلود الفذّ خُطت أسطرٌ لامعات من أزهير نداءه
فاتركوه فهو عنكم قانع بالذي لاقاه من عطف الإله

* * *

أنت لحن الخلد في كفّ الدنا أنت ركن الفخر والله بناه
أنت سرُّ الخلد في لمع السنّا أنت برء الذاء إن عزّ دواه
نم هنيئاً؛ لستّ ميتاً؛ إنّما أنت للتائه في الشكّ هُداة^(٢)

ثامناً: الأملُ الرَّاسخُ وسبيلُ الحلّ

إنّ الشعب الفلسطيني قد ابتلي بمغتصب لا يعرف وجهاً للحق، حتى
أنّه لم يعد يرضى بمضمون قرار التقسيم... والمغتصب لا يستحي ولا
يراعي شخصاً عربياً إلّا لما يعود عليه بالنفع الأكبر، وإذا كان قد ابتلع معظم
أراضي فلسطين سنة ١٩٤٨ فهل يخجل في الطمع بالقسم الباقي وتوطين
اليهود القادمين بكل مكان يشتهي في هذه الأرض الجميلة المقدّسة؟

(١) عطوي - فوزي: أحمد شوقي (أمير الشعراء): دراسة ونصوص، ص ٤٣. دار
صعب، بيروت، ط ٣ (١٩٧٨م).

(٢) ديوان أغاني العودة، ص ١٨١ - ١٨٤.

يبدو أن زعماء «إسرائيل» يطمحون إلى التوسّع في احتلال أراضٍ عربية أخرى، وكلّنا يعلم بالشعار المرفوع على باب ما يسمّى بمجلس النواب الإسرائيلي «الكنيست» «حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل»، وهو مكتوب أيضاً على إحدى قطع نقود العدو.

لكن ترى أيعقل أن يسلم أصحاب الأرض باحتلال أرضهم وابتلاعها؟ وهل يبقى المشردون العرب معذبين تائهيين في أصقاع الأرض، والعدو ينعم في وطنهم؟! وليس هذا فحسب بل إنّه يلاحقهم حرباً بكل وسيلة لديه، هادفاً القضاء على آمالهم في العودة والحياة الحرّة الكريمة!!

كل الدلائل تشير إلى صمود جماهير الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج، وصبرها على الشدائد، وتمرّسها في النضال، وإصرارها على التمسك بحقها واسترجاع أرضها، وهي لا ترضى بديلاً من فلسطين، مدركة أن الطريق شاقّة وطويلة، وأنّ المساعي الدبلوماسية لن تثمر حلاً مشرفاً، والجماهير المؤمنة لا تعول على رأي أفراد يسلكون سبيلاً تشمل الاعتراف بما يسمّى «إسرائيل»، بغية إقامة دولة على جزءٍ ما من فلسطين، لكن الجميع يجمعون على ضرورة تحرير فلسطين بأكملها، وعودة المشرّدين إليها، مهما اختلفت الأساليب . . .

ومن هنا فإن حركة المقاومة مستمرة في صفوف المقاتلين بالرصاصة، والحجارة والكلمة، ومن هؤلاء: الفدائيون، وأطفال الحجارة، والطلاب، والاتحادات المختلفة (عمّال، معلمون، أدباء، مهندسون وغيرهم)، فضلاً عن الجهود السياسية، وهي جميعها تقوم ، وبلا شك ، على أمل التحرير، وعودة المشرّدين إلى أرضهم عودة منتصرٍ موفور الكرامة . . . والتاريخ يثبت أنّ شعبنا العربي لم يسكت على احتلال، وأنّه بقي طيلة الحقب الماضية يناضل حتى دحر المعتدين والمحتلين؛ وهكذا فإنّ التاريخ سوف يعيد نفسه، وعلى

الباغي ستدور الدوائر، وسيعلم الذين ظلموا أيّ متقلب ينقلبون.

والمطلوب في هذا الظرف العصيب هو توجيه الجهود العربية المخلصة كافةً، وإعداد العُدّة، بكل ما لهذه الكلمات من معنى...، بغية تحرير هذا الجزء المحتل من الأرض العربية.

وانطلاقاً من هذه الروح، ومن الإيمان بحقنا في أرضنا، تبرز علينا قصائد الشعراء تعلن التمسك بالأرض، والإصرار على متابعة النضال، والأمل بالنصر والتحرير.

١ - ومن «جبل النار» تنطلق الشاعرة فدوى طوقان لِتُجَمِّلَ هذه المعاني - المبادئ -، في قصيدة «بعد الكارثة» حيث تقول: [مجزوء البسيط]

ستنجلي الغمرة يا موطني	ويمسح الفجرُ غواشي الظلم
والأمل الظامىء مهما ذوى	لسوف يُروى بلهيب ودم
فالجوهر الكامن من أمّتي	ما يأتلي يحمل معنى الضرم
هو الشباب الحرّ، زخر الحمى	اليقظ المستوفز المنتقم
غلّوا جناحيه وقالوا: انطلق	وشارف الأفق وجز بالقمم
واستنهبوه لاقتحام اللظى	والقيد، يا للقيد، يدمي القدم
لكن للشأر غداً هبةً	جارفة الهول، عصوفاً عمم
فالضربة الصمّاء قد ألهبت	في كلّ حرّ جذوةً تضطرم
لن يقعد الأحرار عن ثأرهم	وفي دم الأحرارِ تغني النقم ^(١)

٢ - وهذا كمال ناصر، الذي ملأ حياته بالنضال والعمل النافع، حتى فاضت روحه في هذه السبيل، يعتبر عن ضميره بأنه لن يستريح ما دامت قبضة المعتدي تنهش وجوده، وتُمسِك بوطنه؛ وينتهي باستنهاض الهمم

(١) ديوان فدوى طوقان، مجموعة وحدي مع الأيام، ص ١٣٨.

والدعوة للثأر، ورفض أي سلام لا يحقق العدل، حيث يقول في قصيدة
«غضبة فلسطين»:

لن نستريح! ..
وقبضة المعتدي
بظفرها الأسود
كأنها والغدر في موعد
تنهش من وجودنا المجهد

لن نستريح
فيا شعوب اصمدي
ويا خراف احقدي
وحطمي، واحصدي
فكلنا في غمرة المقصد
مواكب حاقدة تعتدي

يا وصمة لا تنام
لا تؤمني بالسلام
لا عملي للسلام
لا تخشعي للسلام
فالمجد معنى نائر واقتحام
وغضبة، تحملنا للأمام

لن نستريح . . والشعبُ دام جريح^(١)!!

٣ - وإذا كان بعض الناس من جيل نكبة ١٩٤٨ قد يشعرون، ويات القلق يساورهم تجاه الحاضر والمستقبل، فإن كمال ناصر يجدد الأمل مع إطلاقة الجيل الجديد، جيل الشبان اَمتوئين للعمل المنتج . . الذين تنعقد الآمال على سواعدهم، فيزفَ إلينا الأمل بالنصر المحتم . . والفرح يملأ جوانحه : [الخفيف]

أيها الثائنه الكسير جناحا أنا أعطيك للنضال الجناحا
لا سلام وخنجر الشرى يدمي موطناً راعش الذرا مستباحا
لا سلام، وإنما خطوات في طريق العلا تهز الصفاحا
الدماء التي تسيل جراحاً تتشكى الأذى، وتشكو البراحا

يا بقايا الحنان ثوري على الضيـم م ودقي للنائمين الطبولا
خبريهم بأن جيلاً جديداً قد تلوى من غمده مسلولا
أطلقته الآلام من مقلتيها فأضاءت به العيون نزيلا
وحبته الجراح روحاً جريئاً وفؤاداً صلياً وسيفاً صقيلا
أقسم المجد أن يمرّ عليه حاملاً في ركابه المستحيلا . .
علميهم بأن للشعب يوماً عبقرياً في عمرنا لن يزولا^(٢)

٤ - وترسخ الحقيقة بأن تحقيق الأمل يعتمد على السلاح، والمناضلين الأبطال في كلّ ساح، لأن الحرية لا تنتزع إلا بالنار، بالأيدي المضرجة بالدم، لا بقرارات هيئة الأمم، ولا بالمساومات والوساطات، وهذا ما يؤكده وليد سيف بقوله :

(١) الآثار الشعرية، ص ٣٢٠ - ٣٢٣.

(٢) الآثار الشعرية، قصيدة صراع وانتصار، ص ١٦٦ - ١٧٠.

المجد للسلح والتراب والألم

المجد للرجال حين يرفضون لحظة الندم^(١)

٥ - ويؤكد الشاعر عبد الكرم الكرمي الأمل بحتمية العودة على وهج

الأسنة والحراب في قصيدة «سنعود»: [الوافر]

فلسطين الحبيبة كيف أغفو وفي عيني أطياف العذاب
غداً سنعودُ والأجيالُ تصغي إلى وقع الخطا عند الإياب
نعوذُ مع العواصف داوياتٍ مع البرق المقدس والشهاب
مع الأمل المجتج والأغاني مع التسر المحلق والعقاب
مع الفجر الضحوك على الصحارى نعود مع الصباح على العباب
مع الرايات دامية الحواشي على وهج الأسنة والحراب^(٢)

تاسعاً: الأناشيد والأغاني الوطنية

إنّ الشعر الفلسطيني غني بالأناشيد والأغاني الوطنية؛ ومن غير شك
أنهما تحظيان بأهمية بالغة في حياة الشعوب عامة، والشعب الفلسطيني
خاصة، في السلم والحرب، في الأفراح والأتراح، وفي كل حين.

والأناشيد الوطنية أكثر أهمية من الأغاني في هذا الاتجاه، فهي تلخص
المبادئ والأهداف، وترسخها في انفس، وهي تستثير العاطفة والشعور
الوطني، فتستدعي الذود عنها. فضلاً عن ذلك، فهي تسري عن النفس،
وتسهم في نشر الوعي، وتربية الناشئين. ويردها الطلاب والجنود والكشاف
وغيرهم، فتبعث الحماسة والنشوة والاعتزاز في النفوس، وتنعش الأمل.

(١) قصائد في زمن الفتح، شعر، ص ٧٦. دار الطليعة، بيروت، ط ١ (١٩٦٩م).

(٢) ديوان عبد الكرم الكرمي (أبو سلمى) ص ١٧٣.

وسنعرض فيما يلي بعض الأناشيد والأغاني على سبيل المثال لا الحصر.

١ - كان إبراهيم طوقان سباقاً في نظم الأناشيد، غير أن أشهر أناشيده هو نشيد «موطني»، الذي لا يزال إلى اليوم يتردد في معظم الأقطار العربية، ومما جاء فيه: [الرمل].

موطني الشباب لن يكلُّ هُمُّهُ أن تستقلُّ أو يبيد
نستقي من الرّدى ولن نكون للعدى كالعبيد
لا نريد

ذلُّنا المؤبداً وعيشنا المنكداً
لا نريد بل نعيذ
مجداً التليذ

موطني (١)

ويذكر عمر فروخ أن إبراهيم طوقان نظم الأناشيد الوطنية لأقطار عربية، في مقدمتها المغرب (مراكش يومئذ)، بناءً على طلب نفرٍ من طلاب مراكش في كلية النجاح في نابلس، ثم يضيف بأن الأخطل الصغير (بشارة الخوري) عمد في وضع النشيد الجديد للبنان «كلنا للوطن..» إلى الاتصال بإبراهيم طوقان ليغرف من بحره - الرمل - فأخذ البحر وامننى والألفاظ والقوافي والتواشيح، حتى أن عبد الله المشنوق أشار حينئذٍ في جريدة بيروت إلى توارد الخواطر بين نشيد لبنان الجديد - الذي نظمه بشارة الخوري - وبين نشيد «موطني» لشاعر فلسطين إبراهيم طوقان (٢).

(١) ديوان إبراهيم، ص ٢٠٢.

(٢) شاعران معاصران: إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي، ص ١٢٢ و ١٢٥. بيروت، ط ١ (١٩٥٤م).

ولإبراهيم نشيد عن العمل، يقول فيه: [الكامل المنهوك]

إن العمل يحيي الأمل
سرُّ الوجود فيه نسود
في العالمين^(١)

٢ - ونظم محمد العدناني عدّة أناشيد، منها «نشيد فلسطين»، يقول

فيه عن فلسطين: [مشطور البسيط]

تاريخها فخرٌ وتربُّها تبرُّ
وجوُّها سخِرٌ وخيرُها بحرٌ
* * *

فتانة القلب ومنية العُزب
ومنتهى حبي روعي لها مَهْرُ^(٢)

وله نشيد «الوحدة الكبرى»، يقول فيه [مجزوء الوافر]

عروبتنا سنبنيتها لترفع رأسها تها
فبالصاروخ نحميها وبالأرواح نفديها
ونمحقُ خَضَمَنَا قهراً^(٣)

٣ - ونظم هارون هاشم رشيد أناشيد وطنية جميلة إثر نكبة ١٩٤٨،

تنسجم مع الظروف السائدة يومئذ، فانتشرت عبر الإذاعات والصحف والكتب
في أرجاء الوطن العربي، وردّدتها جماهير الشعب في كل ميدان، منها
«صرخة لاجيء»: [مجزوء الكامل]

أنا لن أعيش مشرداً أنا لن أظلّ مقيداً

(١) ديوان إبراهيم، ص ٢٠٣.

(٢) اللهيبي، ص ٧٤.

(٣) الوثوب، ص ١٦٥.

أنا لي غدٌ وغدا سأز حف ثائراً متمزدا
 أنا لن أخاف من العوا صف وهي تجتاح المدى
 ومن الأعاصير التي ترمي دماراً أسوداً
 ومن القنابل والمدا فع والخناجر والمُدى
 أنا صاحب الحقّ الكبي ر وصانعُ منه الغدا
 أنا ثورةٌ كبرى.. تزم جرُّبالعواصف والرّدى
 وطني هناك.. ولن أظلّ بغيره متشرداً
 سأعيدُه وأعيدُه وطناً عزيزاً سيّداً
 سأزلزل الدنيا غداً وأسير جيشاً أوحداً
 لي موعدٌ.. في موطني هيهات أنسى الموعداً^(١)

وفي نشيد «إننا لعائدون» يقول: [مجزوء المديد]

عائدون عائدون إننا لعائدون
 فالحدود لن تكون والقلاع والحصون
 فاصرخوا يا نازحون
 إننا لعائدون

يا فلسطين دعا هاتفٌ إلى السلاح
 فحملنا المدفعا وتنسّمنا الرياح
 للأمام للأمام بالحسام والجمام
 إننا لعائدون^(٢)

٤ - ويخصّص عبد الكريم الكرمي فصلاً واسعاً في ديوانه للأغنيات
 والأناشيد، ولا نجد غرابةً في أن يقوم شاعر وطني مثله بمثل هذا الدور
 الكبير.

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٧٣ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٧٥ .

وبعد أن قدّمنا نماذج عن الأناشيد، فسوف نكتفي الآن بتقديم نماذج
أخرى من أغنيات الأطفال التي وردت في ديوانه، يقول في أغنية
«العندليب»: [المجتث]

العندليب ينادي هذا ربيع بلادي
يا مرحباً بالربيع

الزهر من كل لون والطير في كل غصن
هذا يتيه بحسن وذاك يزهو بلحن
والعندليب ينادي هذا ربيع بلادي
يا مرحباً بالربيع^(١)

ويقول في أغنية «لو كنت عصفوراً»: [البسيط المنهوك]

لو كنت عصفورا أطيّر في السهل
دوماً على مهلي أحادث الزهرا
فلاً ومنثورا لو كنت عصفورا
* * *

أضاحك النجما في الليلة الظلما
وأثيد الشّعرا ما ثئت مسرورا
لو كنت عصفورا^(٢)

ويقول في أغنية «نسيم الربى»: [البسيط المنهوك]

هذا نسيم الربى ينقل شدو الطيور
يا ما أحلى الغنا وفي ليالي الهنا
أما ترى الكوكبا يقول: يا مرحبا

(١) ديوان عبد الكريم الكرمي، ص ١٣٤ .

(٢) ديوان عبد الكريم الكرمي، ص ١٤٦ .

هذا نسيم الربى

هذا نسيم الربى مَرَّ بِأَرْضِ السَّوْطِ
فكيف أشكو الضُّئى ولا يزولُ العَنَّا
وجاد لي بالثُّبَا يَنْشُرُهُ طَيْبَا
هذا نسيمُ الربى (١)

ففي الأغنية الأولى «العندليب»، يعرّف الشاعر الأضفال على المظاهر الخلاّبة في الطبيعة، من ربيع وزهور، ومياه وطيور، فيكحلّ بها عيونهم، ويسعد قلوبهم، كيف لا والطيور تغرّد في الربيع أعذب الأغاني، وتعزف أحلى الألحان، تارةً في البساتين النضرة، وطوراً فوق الحقول والورود العطرة.

وفي الأغنية الثانية «لو كنت عصفوراً»، يحمل الشاعر حلم الطفل وتصوراته ورغباته لو كان عصفوراً، وينقل خياله إلى الطيران على مهل فوق السهل، يُحدّث الزهر حيناً، ويضحك النجم حيناً آخر، ثم ينشد الشعر مطمئناً مسروراً.

وفي الأغنية الثالثة «نسيم الربى»، يُعدّد الشاعر بواعث الهناء والسعادة: من نسيم عليل ينقل أريج الزهور، إلى شدة الطيور، إلى الغناء في ليالي الهناء، إلى طلوع الكواكب مُرَحَّبَةً بالنسيم، وهذا ما يبّدّ التعب والهَمّ، ويبعث الراحة في النفوس، والسعادة في القلوب.

إنها معانٍ لطيفة، تفوح من كلمات سهلة مألوفة: في أوزانٍ خفيفة مشوّقة للأطفال ومسليّة، يستطيعون حفظها بسهولة، وإدراك مضمونها دون عناء، لعلّها تبعث فيهم المتعة، وتوفّر لهم المعرفة، وتحقّق الغاية المرجوة... .

(١) المصدر السابق، ص ١٣٦.